عزيز بولطباق

سخرية

رواية

سخرية

عزيز بولطباق

رواية

الجزائر تقرأ

رواية سخرية لعزيز بولطباق
هدية مجانية من الجزائر تقرأ
لكل من طلبها من القراء
نتمنى أن تنال إعجباكم
لا تنسونا من مراجعاتكم

إن أردت الحصول على نسخة
ورقية من الرواية يمكنك
طلبها عبر متجرنا الإلكتروني

DZREADS.COM

الكتاب: سخرية

النوع: رواية

الكاتب: عزيز بولطباق
ردمك: 978-9931-677-00-0
الإيداع القانوني: السداسي الثاني، 2017

الناشر: الجزائر تقرأ
8 شارع حساني يسعد، بلدية الجزائر الوسطى
هاتف: 0672301773
إيميل: nashr@dzreads.com

/dzreads
@dz_reads
dzreads.com

الجزائر تقرأ مبادرة شبابية هدفها نشر ثقافة القراءة في المجتمع، منها انطلق مشروع دار الجزائر تقرأ للنشر التي تعنى بالإبداع الكتابي. شعارنا «نصيبكم بعدوى القراءة»

جميع الحقوق محفوظة ©

«يحس المرء الآن بإحساس فظيع وهو أن الحرب ليس بإمكانها حسم شيء، وأن الانتصار في حرب مشؤوم مثله مثل خسارتها.»

~أغاثا كريستي~

«وقت السلام يدفن الأبناء الآباء، أما وقت الحرب فيدفن الآباء الأبناء.»

~هيرودوتس~

«في الحرب تصمت القوانين.»

~شيشيرون~

«وجود السخرية لا يعني بالضرورة أن الجدية مستبعدة.»

~سورين كيركغارد~

«السخرية هي ذرة الملح التي تجعل ما يقدم إلينا مستساغاً.»

~فان غوته~

مقدمة المؤلف:

منذ متى وهذا العالم يحترمنا حتى يُنبهنا استعدادا للركل؟هل استشاروك قبل أن يفكروا في إنجابك؟ لماذا المقدمات أصلا؟ بالنسبة لي يكفي أن المشاكل تأتي بدون مقدمات حتى لا أفكر في كتابة مقدمة.

المقدمات في هذا الموطن تُعتبر رفاهية تعرف أصحابها، أثرياء الأدب والفكر، أثرياء المال والأسهم، أما نحن البسطاء، فإننا لا نحتاج مقدمات تُعبر عما بداخل الكتاب ولا حتى في مكان آخر، نفتح الكتاب مباشرة ونبدأ دون قراءة المقدمة الطويلة، نحن من يصطدم بتأخر الرواتب دون مقدمات من عامل البريد ويرعبنا ذلك الطفل الصغير الساذج بالاختباء في غرفتنا المظلمة بحركة الشبح بدون مقدمة.

من يحتاج لمقدمات، نحن هنا نولد بدون مقدمة ولا نعي ذلك حتى نبلغ من العمر شطرا، نتصارع مع مفاجآتنا بالصدمات قبل أن نصارع الصدمات في ذاتها، ثم نختفي من هذا العالم بدون أي إشارات توحي بالرحيل.

باختصار، نحن نعيش الخاتمة فقط.

الإهداء:

إلى كل الذين يستطيعون صفع الآخرين ولا يخافون العواقب.

إلى كل من يتكلم مع نفسه عندما يكون وحيدا.

إلى كل من لا يسمع إلا بعد النداء الثاني.

إلى الأشخاص الطبيعيين.

- ما سبب الحروب في منطقة الشرق الأوسط؟
- الإنسان.
- الإرهاب في كلمتين؟
- إعلام وحقد تاريخي.
- هل تحب بلدك؟
- لدي أشياء أخرى لأحبها.
- ما الذي دفعك للانضمام لمنظمتنا؟
- نفس الدافع الذي دفعكم لإنشائها.

شكرا سيد نادر، تشرفنا بمشاركتك وسنعلمك بنتيجة المقابلة بعد أسبوع، يمكنك المغادرة.

هذا أنا، نادر النجار، خرجت لتوي من مقابلة عمل انتقائية من أجل الانضمام لمنظمة إنسانية لإغاثة من يستحق الإغاثة، لا أعلم إن كنت أستطيع إغاثة أحدهم لكني أستطيع أن أترجم لثلاث لغات وأكتب بهاو أتكلم ، أستطيع التحدث للعصافير أيضا لكن العمل لا يتطلب هذه الموهبة، من يهتم للعصافير أصلا، إن كنتم ترون أن فرصتي جيدة في النجاح فأهنئكم على ذلك،أما أنا فلن أهنئ نفسي حتى يراسلوني بالنتيجة.

مع الوقت ستكتشفون أنني إنسان هادئ طالما أكون وحيدا، كما أنني أغضب من الآخرين بسرعة، لا أفوت فرصة إلا وصببت حِممي على من يستحق، لأنني متأكد أن جهازي العصبي صالح للاستعمال مرة واحدة فقط، لهذا لا أجعله يحتمل كثيرا، أفرغه،أما من يعارضني ويجد كلامي لا يتواءم مع الإنسانية.. الذين يمسكون أعصابهم ويَدّعون المغفرة والتسامح، هؤلاء كائنات طرية، لزجة،لا يعرفون فقه الحياة ومنطقها الأعرج، هم على الأغلب يخافون العراك والهزيمة ويتجنبون البهدلة، كائنات غير قابلة لأي شيء..

ماعدا التكاثر طبعا.

لا أشعر بالجوع لهذا سأذهب للبيت سيرا، صدقوني حتى لو كنت جائعا سأذهب سيرا أيضا، لا توجد سيارات أجرة كافية لتغطية حاجة المدينة، نصف المشتغلين عليها هاجروا، والنصف الآخر يعمل على الخطوط التي يحرسها الأمن فقط، أنا في خط محروس لكن الناس يسيرون في الطرقات المُؤمَّنةكذلك، لهذا، حظي في إيجاد سيارة شاغرةكحظي من اسمي، نادر.

كنت أفكر في التحلل من بعض عاداتي التي أراها قبيحة، ليس التدخين من ضمنها طبعا، بالنسبة لي محاولة الإقلاع عن التدخين عادة سيئة، كنت أود التخلص من

شـريحة الخـط، أسـدد فواتيرهـا دون اسـتغلال، كذلـك أتوقـف عـن الأكـل مـن يـدي، لا أحـد يطبـخ لـي، لا أحسـن الطبـخ، أنـا أصـارع لأكمـل طبقـي اللاشـهي، سـأتوقف عـن عادتـي القبيحـة هـذه وآكل الوجبـات السـريعة، اللذيـذة، صحتي؟ مضمونة أكثر مقارنة ببشاعة نَفَسـي في الطبـخ، أيضـا، أتوقـف عـن تقليـم أظافـري، منـذ زمـن لـم أحـك ظهـري كمـا يجـب فـي سـبيل مظهـر يـدي، لا أظافـر، لا حلاقـة لحيـة، لا مزيـد مـن إهـدار النقـود عنـد الحلاقيـن، لا ملابـس جديـدة حاليـا، كـل الفتيـات يخفـن الخـروج، اللاتي لـم يهاجـرن بعـد، كـل الجميـلات هاجـرن فلِم الأناقة والحلاقـة ومظهرالشـعر؟!

لا أعلـم لمـاذا أجـد دائمـا فـي طريقـي علبـة عصيـر معدنيـة لأضربهـا، هنـا تحديـدا، تقريبـا فـي نفـس المـكان فـي منتصـف شـارع مـن الشـوارع المتسـخة جدرانهـا، جـدا، لاحظـت أن بجانـب الشـارع مزبلـة عملاقـة، لاحظـت مـن الرائحـة، لكـن لا سـبيل للعلبـة أن تمـر مـن خـلال الجـدران، المهـم أنـي لوقـت قريـب كنـت أشـعر بالسـعادة بسـبب القـارورة، أمـا الآن أنـا مُحبـط، لأنـي اكتشـفت أن هـذا الشـارع ليـس ممـرا محبباً للبشـر المتبقيـن فـي مدينتـي، لا أحـد سـيحرك العلبـة مـن مكانهـا، العلبـة هـي نفسـها وأنـا الوحيـد الـذي يضربهـا كـل يـوم منـذ قرابـة سـنة!!

حسنا لا يهم،البيت لا يزال بعيدا جدا،جدا أيضا، مللتم من استعمالي لكلمة جدا؟ أعتقد أني معذور، كل شيء أصبح بعيدا جدا، مرتفع الثمن جدا، حتى صارت أداة ربط منطقية للتعرف أو التعريف بأي شيء، ضرورية جدا! تناقشت مرة مع أحد معارفي حول استعمال هذه الكلمة، وكنا نرى أنها ليست مبالغة في استعمالها ضمن كل شيء، لكنه توقف عن ذلك بسببي، نعم بسببي أنا الذي لا أتوقف عن استخدامها، قال لي أن الحياة صارت مستحيلة جدا، وجدني لا أبارك محاولته في استخدامها مع الحياة المستحيلة، ببداهة أجد أن كل شيء قابل للكثرة والقلة، للجود والشح، للطول والقِصر وكل المتضادات، ما عدا المستحيل، سألته ماهو الحد الادنى للمستحيل وما حده الأقصى؟ قال أن المستحيل الأدنى هو ما يمكن تغييره، أما الأقصى غير قابل لأي تغيير، عندها استعجلت دماغي الكبير لأقنعه أن الشيء إذا بلغ الاستحالة ينتهي النقاش فيه تماما، المستحيل معناه كامل وإذا كان قابلا للتغيير فهو ليس مستحيلا في الأصل منذ البداية، يمكننا القول أن شيئا صعبا يقترب للمحال لكنه ليس مستحيلا، لهذا لا وجود لحد أدنى وأقصى للمستحيل، هكذا كره استخدامها بسببي..

دعونا من الفلسفة،أنا لا أندب حظي في الأغلب، من الآخر لا أؤمن بالحظ، سألني أحدهم عن برجي ليقرأ

لي حظي يوما، قلت له هل تعلم أن الحظ كذبة لطيفة؟ أخاذة، لكن كلما كبُرتَ شعرت بالإرتباك منه، مربك كفكرة الموت، هل تعرف ماذا يخبئ لك الموت؟ هل تعرف ماذا يخبئ لك الحظ؟ نفس المعنى لا؟ الموت كلمة نخدع بها أنفسنا عندما نفشل في حياتنا بمجملها مقتنعين بعزائنا لبعض أن آخرتها موت،والحظ كلمة نخدع بها أنفسنا حتى نراوغها عندما نفشل في تحقيق ما نريد لنقول حظي لم يسعفني.

لدي قناعات أخرى كثيرة، لنقل أنها آراء وليست قناعات، أفترض دائما أنه من حق أي أحد أن يكون له رأي بعكس القناعة، لأن الرأي يكون قابلا للتغيير بسهولة ويكون مبنيا على تجارب بسيطة أو عمليات عقلية غير مجهدة في فترات قصيرة، أما القناعات فهي مجموعة الآراء التي استقوت وتصلبت فصارت صعبة التغيير والتي أتت من تجارب طويلة لسنين طويلة، لهذا فإن القناعات الشخصية لا تصلح للشباب في سني نظرا لتجاربنا البسيطة.

نسيت أن أخبركم، عمري سبعة وعشرون سنة، غير مرتبط، غير مرتبط رغما عني ، لا تنسوا أن الجميلات قد هاجرن.

أين كنا؟

القناعات والآراء، حسنا، بالنسبة للمبادئ، أجدها شيئا غير مهم، المبادئ خلقت لنكسرها، لهذا فإنه من الأفضل أن نخفض سقف المبادئ حتى يسهل تجاوزها، طبعا يوجد منكم من يعتقد أني أهذي بأي كلام، لا تغركم هذه النمطية في التعامل مع الأشياء، لكن المصالح تركب فوق المبادئ وترقص وربما سيفشل كلكم في أول امتحان لمبادئه، ستحرق مبادئك واحدا تلو الآخر عندما يتعلق الأمر برشوة للحصول على سكن ولا تجد البديل، أو الحصول على عمل، أو الهجرة إلى بلاد الكفار، فرصة لتصبح غنيا..

لا تفكروا بالموضوع كثيرا، لكن تذكروني عندما تبدأون في رمي مبادئكم وراءكم، ستتبخر من بين أفئدتكم بالجملة.

بالنسبة للحي الذي أعيش فيه، كان بسيطا، يسكنه التجار القدماء وأنا من أبناء الذوات، كنت من أبناء الذوات، ترك لي والداي الكثير من المال، بعد التضخم الاقتصادي بسبب الحرب قَلَّتْ قيمة ممتلكاتي، لكني أعيش بشكل جيد، لن أكذب عليكم، الشوارع لم تكن نظيفة أبدا، تمتاز بخصائص الشوارع في بلاد عربية، لكن أؤكد لكم أنها كانت أكثر نظافة قبل القصف والدبابات، كانت رائحتها عادية طالما نكون

بعيد عن المزابل وعندما أتت الحرب عليها جعلته مليئاً برائحة البارود، أكثر تعقيدا، نعم تعقيدا، مثلا يصعب علي الذهاب للبقال من الشارع الأقرب لأنه مدمر تماما ويقطعه الركام فأتخذ مسالك أخرى، تذكرت، سأمر على بائع الخضار والبقال،لا تعتقدوا أني تراجعت عن فكرة الأكل الجاهز لا سمح الله، لا أبدا، فقط ميزانتي لا تسمح حتى أضمن وظيفتي في المنظمة.

بيتي فيه شيء لله، لم يسقط منه شيء ما عدا بعض الأثاث، أشعر أنه يحاول أن يساعدني في الحفاظ على أعصابي، أنا أرى كل البيوت تقع منها جدران وأبواب وأجزاء من السقف، لكنه أبى ذلك، إنه قديم، ليس قويا، لكنه صبور، أشعر أنه يعتذر كل يوم مني عندما أجد أشياء معلقة سقطت إثر ارتجاجات الإنفجرات، واليوم بعد أن انتهت الحرب، بقيت بعض الضربات لكنها بعيدة ونادرة عن مكان سكني،صار كل شيء مرتبا، في الحقيقة ليس مرتبا، أنا إنسان غير مرتب بالمرة، متأسف، قد تعتقدون أني ليست صادقا قليلا بعد قصة البيت المرتب، في الواقع أنا أكذب، كلنا نفعل لا؟، لكننا لا نحب الاعتراف ، أَكذِب حسب الحاجة، حسب الموقف، حسب المزاج أحيانا، أما هؤلاء من يرون أن الكذب شيئا بطالا ولا يجوز ممارسته، أعتبرهم كائنات سطحية لا تفهم الدنيا، لا يعني أني أفهم الدنيا أفضل، لكني

أعرف بعض الأشياء، أعرف الكثير عن البرد، عن الجوع، الخوف، ليس الخوف بل الرعب، الإرهاق، الأرق وغير ذلك، وأعرف أيضا أن من يطلب من الناس التوقف عن الكذب والخداع والنفاق والحسد كأنه يطلب منهم التوقف عن كونهم أناسا، إنها خصائص ضرورية لا تفارق البشر مهما حصل، لكنها متفاوتة فيما بينهم، وهذا التفاوت هو ما يميز الأشخاص وطبائعهم.

فلسفة من جديد..

إنه الأذان، الكنيسة تقرع أجراسها أيضا، كم أكره هذا الموقف، لا أعرف أين سأذهب للصلاة عندما يتزامن الأذان وقرع الجرس، سأنزل وأقرر في الطريق.

كانت لدي جارة عجوز تسكن لوحدها، لديها ابنة هاجرت إلى أوروبا لكن أمها آثرت البقاء، كنت أود أن أسألها عن سبب بقاءها في ظل هذه الظروف البائسة،جدا، لكنها ماتت قبل أن ألتقيها ،يومها اكتشف الجيران موتها بعد أسبوع، العجوز كانت تسألني دائما عن البريد، تناديني من أعلى شرفة شقتها وأجيبها دائما، صندوق بريدك فارغ يا خالة، في بادئ الأيام كنت أفتحه وأنظر هل من رسائل، ومع مرور أيام شبابي وأيام شيخوختها صرت لا أفتحه..

ساعي بريد في حرب؟

لم تزد علاقتي بالسيدة وابنتها عن صندوق بريد فارغ، ابنتها لم تسأل عنها منذ سنة وربما لا تعرف أن والدتها ماتت، لكني تذكرت منذ أيام عندما حلت عندنا في الحي قناة يبدو أنها ليست عربية، كنت شاهدت كيف يسجلون الحوارات في شارعنا مع الجيران، العجيب أنهم كانوا يبتسمون أمام الكاميرا، تذكرت لحظتها التسجيلات المصورة القديمة لابتسامات كثيرة أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية لمهاجرين أوروبيين كانوا يجوبون الحدود ، كانت صورهم تثير التعجب، كيف لهم مهاجرون من بيوتهم وبلدانهم أن يبتسموا للكاميرا، ربما نجد الواحد منهم لديه مِن معارفه أو عائلته قد مات حديثا، مصاب بالجوع الشديد والبرد القارس يبيتون في العراء، لا مأوى ولا لباس،لكنه يضحك للمصور، لكن عجبي قَلَّ بعد أن فكرت قليلا، اكتشفت أنهم كانوا يضحكون للاختراع الجديد، آلة التصوير، معجزة القرن العشرين التي كانوا يسمعون عنها فقط بأنها شيء خارق يمكنه أن يحفظ صورتك تتحرك وتعرض في صندوق صغير، ربما كانت بمثابة الإشاعات أو الخرافات لأولئك البسطاء الذين لا يقدرون على تصديقها، حتى رأوها بأم أعينهم، إنه لأمر مذهل أن تصورك الكاميرا في ذلك الزمن، لهذا فإن مهاجري الألمان والنمساويين والأوكرانيين وغيرهم

كانت تغلب عليهم مشاعر الدهشة أكثر وتنسيهم الحزن ومآلات الحرب وآثارها فيضحكون، على الأقل لحظتها، لكن، ما الذي يضحك هؤلاء في حينا عندما كانوا يصورون مأساة تلك العجوز؟ هل هو شعور الدهشة والتعجب من الكاميرا؟ بعد قرابة مائة سنة من اختراع هذا الشيء؟معقول أن ما تعجب منه ضحايا أوروبا في القرن الماضي يتعجب له جيراني اليوم؟

لا تظنوا أني أستغرب نكاية فيهم، أبدا، الموضوع أقرب للشفقة على بساطتهم وسذاجتهم، من عادتي أن أحاول التفكير خارج أي إطار وبعيدا عن النمطيات ولا أطرح تساؤلات مبتذلة، وللأمانة لن أختلف معهم في أن الحرب شيء واحد سواء كانت عالمية أو إقليمية أو موضعية حتى، نعم موضعية كالمرهم، الحرب شيء واحد ولو كانت صراعا بين شارعين.

يبدو أني لن ألحق صلاة المسجد ولا الكنيسة، لم العجب؟ ربما لم تصادفوا إنسانا يحترم كل صلاة الأديان من قبل؟، إنه شيء طبيعي بعد خمس سنوات من الحرب، أكثر أصدقائي فقدوا إيمانهم تماما بعدما صاروا يحضرون تأبين أصدقائهم أكثر من حضورهم في الجامعة، وقد يكون من اسمي نصيب هنا لما لم أفقد إيماني، نادر أنا، لكني خضت تلك التجربة التي

فشلت فيها في الثبات على موقفي الإيماني، كان هنا من الألم من يجعل الناس تنتحر، وكنت دائما أطرح ذلك السؤال الثقيل أين الله؟ رأيت أطفالا مقطعين على الطرقات، حوامل لم تقدرن على الجري هروبا من القصف فاحترقت هي ومن ببطنها، رأيت كل أنواع الدم، دم المذبوح والمبقور والمسلوخ، فقدت الله بسبب تلك البشاعة، بقيت على هذه الحالة فترة طويلة أعيش في سلام مع أفكار الانتحار والعدمية والفوضى الوجودية، تصادف أن استغليت حالات إغلاق المكتبات الجماعية واشتريت عشرات الكتب بثمن بخس، وجدتني بقراءة الفلسفة والمنطق والفكر أختلف مع تجربتي في الحرب، جعلني ذلك أجد استشفاءً إيمانيا، لكن، صرت مؤمنا بطريقتي الخاصة، مؤمنا بكل الأديان، لأن الأرض التي بنيت عليها مساجد وكنائس ومعابد كلها أرض الله، إنها النقطة الوحيدة التي يتصالح فيها العالم ويتفق برغم اختلاف الطقوس والشعائر، الكل يعبد بطريقته، ألم يقولوا أن عدد الطرق إلى الله بعدد أنفاس البشر؟

بالرغم من ذلك، إلا أنني ضد أن أكون ضحية الحرب التي يعتبرونها سُنّة ضرورية في تاريخ الحضارات، لا يتغير العالم ولا تندفع الشعوب نحو أهدافها إلا بها، يملأون الكتب بموضوعيتهم واستنتاج أنها بالرغم من قذارتها لكنها تصنع الإبداع وتدفع بالحضارة مقابل ثمنها باهظ،

أنا واحد ممن دفع ثمنها الباهظ ، وأغضب ممن يعتبرني ثمنا أو وقودا للحضارة، وهل سيذكرني التاريخ أم يذكر الذي يترفقي عيشه من بعدي؟.

سُحقا للموضوعية.

قال أحد المؤرخين اليونانيين أن الحرب حلوة بالنسبة لمن لم يعشها، أما أنا فأقول الحرب بدون طعم، هي بعض المفاجأة في البداية ثم نألفها، تصبح شيئا من مكونات الحياة بالرغم من قذارتها، هي كالصفعات المتتالية على الخد، أول الصفعات مؤلم، والثانية شبيهة بالأولى ثم يبدأ الخد بالخدر، آخر الصفعات لا نشعر بها.

بعض الفترات أَضعُف بشدة، أشعر بالخواء عندما أفقد القدرة على التمييز بين الحياة والموت، أحيانا أشعر بالعدمية عندما أفقد القدرة على التمييز أصلا، أحيانا أحصل على بعض التساهيل المزاجية فأصبح متفائلا، ليس ذلك التفاؤل الأفلاطوني الذي لا أؤمن به هو الآخر، لكنه تفاؤل هرموناتي على الأغلب، لأنني أعلم أن كل شيء لا يزال كما هو، وتلك التغيرات الطفيفة التي تحصل في يومياتنا لن تُغير شيئا، والنتيجة أن الحال قبل الحرب عفن، وأثناء الحرب نفاية، وبعد الحرب خردة.

هل رأيتم كم الفلسفة التي تصدر مني؟

أحد الأسباب التي جعلت الناس تمل من نقاشاتي، أو أحد الأسباب التي تمنعني من مناقشة الآخرين، لكني لست كالبقية، متصالح مع نفسي، لا يخامرني شك في ذلك، لاأؤمن بمذهب، لا شيعة معينة ولا مجموعة، لا مدرسة فكرية، لا أي شيء، أنا مزيج من تجارب حياة عادية، إضافة إلى حرب وبعض كتب من مكتبات مدمّرة.

بعد قضاء أسبوع من الانتظار اتصلت بي المنظمة معلنة قبولها إياي، ها أنذا أذهب للعمل في يومي الأول، في الحقيقة أخاف أن أمارس عجرفتي المعتادة لكنني سأحاول أن أحافظ على هدوئي لشهر أو اثنين ريثما أدرس الوضع جيدا، اليوم الأول صعب، لسببين، أولهما أن العمل بطريقة عدد الساعات لا أحبه، ومن يحبُّه، لكني أرضى به بعد مأساة كالتي عشتها، حسنا المأساة سبب ثانوي .لن أكذب عليكم لكني أرضى به خوفا من تعسر أحوالي المادية، وثانيا لأني أعلم أني سأبدأ روتينا غير الذي عهدته، الروتين بالنسبة لي شيء عادي، لكن تغييره هو الصعب.

لماذا عادي؟

الروتين هو أساس الحياة ولا يمكن أن نعيش من دونه، هل تعلمون أن الروتين هو من يصنع الذكريات الجميلة، لأنه بتكرار الأحداث نشعر بالملل كثيرا حتى يحدث

ويُكسر يومك العادي بشيء جديد، فتشعر بسعادة إثر ذلك مهما كان الحاصل صغيرا، ولو أننا نعيش حياة غير روتينية لما كان يرضينا أي شيء حتى نفرح، الروتين يضعنا في حياة رتيبة تحتاج إلى شيء جديد، ودون الرتابة لكان كل شيء جديدا، وإذا كان كل شيء جديدا انقلب ذلك الجديد اليومي إلى روتين حتى نصل لدرجة لا يمكن أن يسعدنا أي طارئ، الروتين مصنع السعادة والذكريات.

إذا اقتنعتم سأستمر في الكلام، إن لم تقتنعوا..

سأستمر أيضا، المكتب الذي مُنِحتُ أياه مكتب بسيط، غير نظيف وغير مرتب، وسأعمل جاهدا كي أحافظ عليه بشكله المزري هذا، ليس حباً في العمل تحت الفوضى، هو كسل..

لم أكن أتخيل يوما أني سأكون موظفا، أخاف أن يكبر سني في عمل واحد وأشيخ ثم أتقاعد ثم يشفق علي الناس ويكرمونني بحفل صغير جزاء نهاية الخدمة، لا أحب حفلات نهاية الخدمة لأنها تعبير صريح على أنك شخص انتهى، لَسْتَ مرحبا بك في عالم نشط، إذهب إلى بيتك واركن جدسك البالي في إحدى زواياه، وانتظر الموت..

يا للرعب..

هل رأيتم عاقلا يتكلم عن خوفه من التقاعد في أول يوم عمل له؟

مرت علي منذ قليل موظفة وأعطتني جدول أعمالي الابتدائي، ترجمة كثيرة، لكنها أعجبتني..

أنا أتكلم عن الترجمة.

بدأت الكتابة على الجهاز ولم أشعر بمرور نصف ساعة حتى عادت إلي، طلبت مني مرافقتها لمكتب المدير حتى أتعرف عليه، بدأ الكلام بالعربية، كان يفهم ما أقول ويرد بصعوبة، أخبرته أني أجيد الإنجليزية لو يريد، اتضح لي أنه بولندي عاش في بولندا نصف حياته والنصف الآخر في تركيا، طلب مني أن أعلمه العربية، وافقت مرغما، لا تنسوا أني أحاول التقليل من عجرفتي وهذا هو اليوم الأول، لكني أعدكم أني سأتخلص من فكرة المعلم هذه، أنا لا أطيق الجميل الذي لا يدر علي مالا، لا يمكنني التفكير بالخير في أناس أعمل لديهم، إنه الكره الذي جُبلنا عليه بالفطرة، إكره رئيس عملك، وها أنذا أكرهه من اليوم الأول.

عدت إلى مكتبي ممتلئ الملل، ثم اكنببت على الأوراق

أترجمها بسرعة فائقة، لم تمر ساعتان حتى انتهيت . ناديتُ الموظفة، هل يمكنني المغادرة؟ قالت أن العمل ترجمة ورد على المكالمات الاجنبية، يعني إذا انتهيت من الأوراق علي الانتظار طوال اليوم حتى أرد على مكالمة ما قد لا تحدث مطلقا، لكن ليس هذا أسوأ ما يمكن أن يحصل لي، وكما قلت سابقا أنا لا أندب حظي كثيرا، خمس ساعات أخرى يمكنني التأمل فيها، أتأمل في شقوق الجدران، العنكبوت، الغبار الكثيف على النافذة، تلك هي مشاريعي المُتاحة في أوقات الفراغ، ليست هوايات بل مشاريع، مشروع ملاحظة العنكبوت وهو ساكن لمدة أسبوع لا يتحرك ثم تلتقط شبكته ذبابة تعيسة، لا يهجم عليها لأنه يعلم أنها مبدئيا في معدته، أراه يتوقف مدة كأنه لم يمل من أسبوع الانتظار ذاك، يقترب منها رويدا إلى أن يصل إليها، يلفهابالخيوط ثم يعود حيث كان، أو مشروع شقوق الجدران، رائع، تذكرني تلك الشقوق باتفاقية سايكس بيكو، تشبه حدود الدول الجيوسياسية، أترقب انتظار خروج شق جديد لتنشأ دولة جديدة على الجدار أو تقوم دولة باحتلال أخرى، القنابل والمدفعية كانت تساعد دول الجدران كثيرا، أما مشروع الغبار فهو أقلهم امتاعا، لا تنتظروا أن أحكي لكم عن شيء منه.

بعد قرابة أربعة أشهر من العمل، نحن ننتظر دفعة

موظفين جدد، وبعد أن برهنت على كفاءتي أراد المديرأن أكون عضوا ضمن اللجنة الانتقائية للاختبار، لم أشعر في يوم أني سأصبح صاحب سُلطة، حيث أن مصير العديد من الناس تحت يدي، أمضيت ليلة أمس كاملة أفكر في طريقة تعاملي مع الموضوع، لا أخفيكم أنه في آخر لحظة قبل أن أقوم من مكاني لأذهب للعمل أنني وصلت لنتائج فلسفية عديدة، حيث أنني شعرت بالقوة بمجرد منحي هذه السلطة البسيطة، وكنت أود أن أبرز ذكائي أمام المرشحين، ليس من باب تعجيزهم لكن من باب متعة شخصية، الاستمتاع بأعصاب الناس لا يوصف، الفوقية،لكن وكما قلت، فإنني تراجعت عن أفكاري في آخر لحظة، حيث تذكرت مقدار استيائي من هذا العالم العشوائي، وقد كنت أرى أن أغبى الناس هم من يبحثون عن السلطة والنفوذ واللعب على أعصاب البشر، وها أنذا في أول امتحان لي أفشل تماما، شعرت في لحظة أني بعد الاستمتاع بالمرشحين سأضع عودا على أسناني أنظف ما علق بها، يا للهول، نحن حقا وحوش رابضة تنتظر فرصة للتوحش، ولابد أننا مسالمون سلاما سلبيا، لا تعرفون ربما أن السلام نوعان، إيجابي وسلبي، الإيجابي هو صنع سلام وإقناع الكل على ممارسته حتى يصبح شيئا أصيلا فيهم لا تؤثر فيه أية طوارئ مهما كانت، والسلام السلبي هو الذي نعتنقه دون أي وعي، فقط لأننا وجدناه من حولنا ،تقليد أعمى، لكن مع أي

انفلات يبدأ بالانهيار ويتداعى تِباعاً بشكل مرعب .

اكتشفت اليوم أني سلبي جدا في شخصي المسالم، لكن لا أريد أن أكون إيجابيا، ليس هذه المرة، اليوم سأستمتع بفرصتي التي لن تتكرر على الأرجح، هل تتخيلون أنفسكم مكاني؟ أليس من الرائع أن تعيش يوما دكتاتورا وتربط مصائر أناس بنزواتك البهيمية؟

جلس مدير المنظمة في الوسط وجلست الموظفة على يمينه وأنا على اليسار، إلى أن دخل أول الأشخاص.

- الشخص: السلام عليكم.
- الموظفة: أهلا بك.
- الشخص: لقد سلمت عليك بتحية الإسلام، ردي علي بمثلها أو أفضل منها.
- أنا: حضرتك مرفوض، بإمكانك المغادرة.

خرج الشخص غاضبا، لن أعلق كثيرا عن فكرة التحية، أنا مسلم على فكرة، لابد أنكم ارتحتم لمعرفتكم ذلك، لكني لا أبالغ في تعاملي بالدين مع الآخرين، لا تهتموا لي، رفضت الشخص لأن زميلتي الموظفة مسيحية، هل عرفتم أن الرجل غبي واعتقد للحظة أن كل الناس مسلمون؟

أنا شعرت بذلك، لكن لحد الان دكتاتوريتي منطقية أليس كذلك، المهم الشخص الثاني يدخل الآن.

- الشخص: السلام عليكم.

- أنا: وعليكم السلام، عرفنا عن نفسك.

- الشخص: أيمن الجندلي، موجود في سيرتي الذاتية كل ما تحتاجون معرفته.

- المدير: مكتوب في سيرتك أنك متوسط اللغة الفرنسية، حدثني عن نفسك بالفرنسية.

- أنا–بكل ما أوتيت عضلات وجهي لإبراز ضحكة صفراء-: نعم، تكلم مع السيد المدير بالفرنسية.

- الشخص: لا يمكن، أنا متوسط بالفهم والكتابة وليس النطق.

- المدير: أتكمل يا نادر؟

نادر الذي هو أنا، أعتقد أن هناك من نسي اسمي !

- أنا: طبعا، أخبرني سيد أيمن، ما الذي دفعك للعمل في منظمة؟ هل لغياب البديل أم بدافع الخير الذي يسكن بين ضلوعك؟

- الشخص: حب الخير هو ما دفعني.

- أنا– غاضب قليلا من كذبته الغبية-: بإمكانك المغادرة سيد أيمن.

- الشخص: أهذا كل شيء؟ هل أنا مقبول؟

- المدير: ستصلك النتيجة بعد أسبوع عبر الهاتف، إلى اللقاء.

وهكذا، لتبدأ قصة الشخص الثالث.

- الشخص: مساؤكم سعيد.
- أنا: وعليكم السلام.

الموظفة تضحك..

- أنا: أهلا وسهلا، عرفنا بنفسك.
- الشخص: أنطوان الدهان، تخرجت من الجامعة هذه السنة وملفي بين أيديكم.
- أنا: حضرتك درست فلسفة، قلي هل ترى أن هذا التخصص مفيد في أعمال المنظمات؟
- أنطوان: الفلسفة بقدر ما تكرهها الناس بقدر ما هي أم العلوم.
- أنا: أقتنعني أنها تتوافق مع العمل الخيري.
- أنطوان:...
- أنا:...
- أنطوان:...
- أنا:...
- الموظفة: شكرا أنطوان يمكنك الذهاب
- أنا– بنظرة حقودة قليلا على زميلتي-:...

غادر أنطوان وقد أغضبني قليلا، كيف لا يستطيع أن يربط بين الفلسفة والعمل الخيري، ماذا يفهم عن الفلسفة

وهو صاحب شهادة فيها، غبي، كما أغضبتني الموظفة لأنها تجاهلتني وسارعت لطرد الرجل.

- الموظفة: ما رأيكم باستراحة.
- أنا: لا.
- المدير: إذا لنستمر.

وهكذا رددت لها صنيعها بسرعة ،أنا سعيد بذلك، شعرت بها تسخر من موقفي مع آخر المرشحين وها أنذا أعرضها للسخرية أيضا.

بالمناسبة، لابد وأنكم تشعرون بالضيق لعدم معرفتكم بزميلتي الموظفة، وربما أرهقكم تصرفي هذا في التحاشي عن الحديث عنها والغموض، اسمها ريم، ليست قبيحة، أكبرها بسنتين، لا يعني أن إشارة فارق السن هذه توحي بأني سأقع بحبها، صدقوني لن أفعل.

لم يحدث أن تحدثت معها كثيرا، غامضة قليلا، وأنا أتحاشاها كما تفعل هي، لكن من خلال أحاديثنا القليلة بإمكاني أن أخبركم أنها فتاة ذكية، تتقن الانجليزية أفضل مني، تعرضت لعلاقة فاشلة مع إيطالي كان يعمل بالمنظمة قبيل انضمامي لها، رأيت صوره، قبيح جدا، لكنه إيطالي، وقد حلمت المسكينة بالسفر معه وترك هذا البلد الأهبل، إلا أنهما فشلا تماما في التوافق ولا

أعلم لماذا، المهم حسب ما أفهم هي الآن في فترة نقاهة من السراب الإيطالي، وربما ذلك هو سبب غموضها، لكني أتعمد بين حين وآخر أن أسخر منها، ليس كرها فيها لكنها طبيعتي، لا أقدر إلا على السخرية بكل من أصادف، وما أعجبني حقا أنها بعد أن تغضب تعود كما كانت بعدها، دون أن تضحك لكنها تعاملني بالشكل المعتاد، أتذكر مرة أنها جاءت إلى مكتبها متأخرة قليلا، استفزيتها بسبب تأخرها وقلت لها أني سأخبر المدير، لم تحرك ساكنا ولم تنظر لي حتى، ذهبتُ للمدير وعدت وأخبرتها أن المدير يريدها، لم تصدق أني فعلت ذلك وذهبت إليه بسرعة وهي تبرقني بأشد النظرات كراهية وحيرة، كانت تشتمني بحواجبها، ما لبثت أن عادت وهي ترمقني بنظرة غير الأولى، ليست نظرة كراهية، بل يأس مني، لن تسامحني على طلبي من المدير أن يمنح لزميلتي الجميلة الأنيقة إجازة قصيرة ترتاح فيها قليلا، جبارة هذه البنت، لابد أنكم أحببتموها، أنا لست كذلك.

تصرفاتي معها كانت من أجلي فقط، كذلك مع المدير ومع كل من عرفت، لكم أن تتخيلوا الحياة التي أعيشها، فارغة تماما، لا شيء فيها يستحق انتظار الأيام القادمة، أقتات من أفكاري وتناولي لكل شيء على محمل النقاش، وأتغذى على تصرفاتي الثقيلة مع من حولي، لا شيء يُشعرني بكياني غير هذه الأمور.

الشخص الرابع..

- الشخص: يومكم سعيد، أحمد النابلسي خريج معهد أدب عربي.
- المدير: أهلا وسهلا، لقد اخترت أن تتوظف عندنا إذا نجحت، ما سبب قدومك إلى هذه الوظيفة؟
- الشخص: سيدي، أنا شاب حياته صعبة جدا، حياتي متوقفة على وظيفة أعيش منها، لا أطيق هذا الفشل الذي أعيشه وأخاف أن أبقى طوال حياتي فاشلا.
- أنا: لحظة يا سيد، فشل؟ ماذا تقصد بالفشل؟
- الشخص: يعني لم أحقق أي نجاح في حياتي ماعدا شهادتي الجامعيةالحقيرة.
- أنا: لكن هل تعرف معنى الفشل والنجاح حتى تصف نفسك أو غيرك بهما؟ أنت في مرحلة جيدة طلما تعتبر نفسك فاشلا، لأن المشكلة الحقيقية هي الإخفاق وليس الفشل، نعم الإخفاق، ما الفرق بين الإخفاق والفشل؟، الأول نهائي لا يمكن الانطلاق بعده، والثاني مرحلة ضعف فقط، طبيعية جدا، يمكن بعدها الاستمرار.
- المدير: شكرا لقدومك وسنتصل بك لنعلمك بالنتيجة.

يحاصرني المدير بنظراته كلما غادر أحدهم، دعوني

أخبركم شيئا تعلمته، بعد أن عرفتم الفرق بين الإخفاق والنجاح ، يجب أن تعرفوا أن الفشل والنجاح ليسا متقابلين ولا متضادين، إنهما أشبه بمتتالية تحوي قيمتين، حلقة واحدة متصلة، مثلا هل نستطيع أن نقول أن النوم واليقظة متعاكسان؟ لاحظ أن النوم واليقظة موجودان أصلا وهما صِفتان تلازمان كل البشر بدون استثناء ووجود أحدهما لا ينفي الآخر بالمطلق، كل منهما موجود لابد منه، المستيقظ يعيش حالة موجودة والنائم يعيش حالة موجودة، ولو كان في ذلك حاجة أو إفراط فإننا مرغمون على فعلهما دائما وأبدا ، حتى أن قراراتنا بسيطةجدا إزاءهما حيث لا يتعدى أن إصرارنا او طموحنا في إضافة ساعة نوم أو الاستغناء عن ساعة يقظة، لهذا فإن الناجح يلتزم بصفة ساعدته الظروف على بلوغه والفاشل يلتزم صفة ساعدته الظروف أن يلتزم به، من ينام كثيرا لا يعني أنه ليس مصيبا ومن يفشل كثيرا لا يعني أنه ركب الخطايا، الحياة يا صديقي لا تمنحك خيارات مناسبة ولا خيارات كافية، الظروف المناسبة هي التي تبحث عنك وتجدك ولست أنت من يجدها، يجب أن تفهم، الفشل في فترة ما هو الأصل والنجاح هو الطارئ، وفي فترة أخرى يكون النجاح أصلا والفشل طارئا، وبما أن العالم كله يسير للوراء فإن الفشل دائم الوجود والنجاح نادر الوجود، أما الإخفاق فلا يُمكن أن نصف حياتنا به حتى نُجرب الفشل طويلا ونُرهق منه .

- المدير: يجب أن تفهم يا نادر أنه بطريقتك هذه لن نوظف أحدا.
- أنا: أعذرني سيدي المدير سآخذ استراحة.
- الموظفة: خذني معك
- أنا: لا

خرجت من القاعة، لدي رغبة في تناول قهوة، كلنا لدينا تلك الارتباطات الذهنية التي تجعلنا نتذكر أشخاصا بعينهم، كأن يُخبرك أحد أصدقائك عن معلومة جديدة عليك فينطبع ذلك على ذاكرتك، وفي أي لحظة تصادف ذلك الشيء ستتذكر صديقك ذاك، يقول لك أن مقهى جديدا فُتح في المكان الفلاني، سيرتبط ذلك المكان دائما بصورة صديقك مهما تلت الحادثة من سنين، سيحتكر صديقك ذلك المقهى في ذهنك لا محالة، كما يُمكن ألا يتعلق الأمر بشخص، بل بخبر في التلفاز أو إعلان لمادة استهلاكية وغير ذلك، هذا ما يحدث لي الان، كلما أفكر في القهوة أتذكر إعلانتها في التلفزيون ، وكل ما أفكر فيه أنهم يعاملوننا بأسلوب سمج، بعد أكثر من خمسين عاما من الإعلانات لم يعلموا أن القهوة تحديدا لا تنجح إعلاناتها، إنها تحوي مواداً تسبب الإدمان والإقلاع عنها يقترب من المستحيل، لقد أدمناها وانتهى الأمر، هل يمكن أن يضخوا أموالا في سبيل الإعلان عن الكوكايين مثلا؟.

حسنا، أنا أعرف أن المنافسة بين الشركات شديدة، والفارق تصنعه النكهة والذوق، لكن بالضرورة بعد أن صارت كل الشركات تصنع سلعا لا تختلف إلا في شكل العلبة وصار معروفا أن الأغلى ثمنا أطيب مذاقا، سيكون استهلاكي حسب ما أجده أقرب ليدي، لو وجدت قارورة البيبسي أقرب من الكوكاكولا لابتعتها ولو كانت الكوكاكولا أقرب لما فكرت في شراء البيبسي، نحن بسيطون جدا والشركات التجارية تعقد الموضوع.

عم محمود أعطني قهوة، عم محمود شكرا.

هذا هو حواري الدائم مع العم محمود في النادي، أطلب قهوة ولا يرد علي، يعطنيها ثم أودعه، لا يرد علي أيضا، هو غاضب مني، تعلمون السبب بكل تأكيد، أنا.

لدي مشكلة، مع الناس، الإفراط في السؤال عن الصحةو الأحوال والعائلة والعمل والأصدقاء وغير ذلك، والإفراط يليه إفراط آخر، وبعد الانتهاء من تسلق سلسلة جبال التحية والمصافحة، يمكن أن تفترق مع هذا المُفرط ويحدث أن تلتقيا بعد ساعة، لتجهز نفسك من جديد وتلبس عُدَّةَ التسلق.

لكم أن تتخيلوا أولى الحوارات مع العم محمود..

- أنا: صباح الخير عم محمود.
- عم محمود: يسعد صباحك أستاذ نادر، كيف الصحة؟
- أنا: الحمد لله وانت.
عم محمود: تمام، كيف العائلة والأهل؟
- أنا: بخير، أعطني قهوة من فضلك.
- عم محمود: طبعا، أحلى قهوة لأحلى نادر بالتاريخ والجغرافيا.
- أنا: شكرا..
- عم محمود –وهو يحضر القهوة ويخاطبني-: كيف حالك وكيف الصحة ان شاء الله بخير؟
- أنا: الحمد لله.
- عم محمود: أخبار العمل تمام؟
- أنا: الحمد لله.

ثم يحصل أن تشتغل كل مِهَنِ العالم في هذا الشخص

- عم محمود–الخبير النفسي-: واضح أنك لم تنم البارحة جيدا، خيرا؟
- أنا: من عادتي أن أسهر لكن مزاجي لا يتأثر كثيرا.
- عم محمود–الطبيب-: لا، السهرة ليست جيدة لصحتك، يجب أن تنام باكرا.

- أنا بكل ملل: الحمد لله.
- عم محمود: نعم؟
- أنا: أقصد إن شاء الله.
- عم محمود–الدكتور المتخصص-: رأيت؟ هذا كله من السهر، يفقدك تركيزك، لو تستمر بهذه الطريقة سيفقد دماغك الكثير من الخلايا والتي لا يمكن أن تُعوّض.

- أنا: يا عم محمود أعرف هذه المعلومة منذ عشرين سنة، ولست بحاجة لتلك الخلايا الحمقاء التي تموت بسرعة بسبب سهرة صغيرة، أرجوك، أعطني القهوة قد تأخرت.
- عم محمود–الشيخ الحكيم- : يا رجل، لن تنال من الدنيا شيئا، عش حياتك ببساطة، العمر واحد، و..
- أنا: يا عم من فضلك، بربك، لست محتاجا لكل هذا، أريد قهوة فقط.

وهكذا، قرابة الشهر وأنا أفعل حوارا شبيها بهذا قد يطول وقد يقصر قليلا كل يوم، كنت قد وعدت نفسي ألا أمارس شخصيتي حتى أفهم الوضع في المنظمة، وبعد انتهاء فترة النذر كان العم محمود أول الضحايا.

لم يحصل وفكَّرْتَ أن تكون موضوع كلام بعض أصدقائك؟ أن تكون محل سخرية أو مصدرا للضجر،

وسبب ذلك هو طبع فيك لم تتفطن له، من الضروري طرح هذا السؤال على نفسك دائما حتى لا تكون غبيا، لكن الأفضل هو أن تكون إنسانا ثقيلا بإرادتك، تعلم أنهم لا يحبون سلوكك وتصرفاتك لكنك تفعلها، ليس من باب رمي البلاء عليهم، من الأفضل أن تفهم سلوك البشر جيدا وتقرأ عنه كثيرا، وتحاول أن تكسب خبرة في تفسيرها وأن تتثقف جيدا حتى تصل لمرحلة تقدر من خلالها اكتشاف الأخطاء التي لا يتفطن لها الناس على الأغلب، على الأقل ستخفف من معاناة هذا العالم من السخافة، تخيل أن ينتهي عصر الإفراط في التحية والاستقبال والقبل الكثيرة، ينتهي عصر معضلة إنهاء الاتصال عبر الهاتف يكون إنهاؤها عبر كلمتين فقط، حسنا إلى اللقاء، وليس شكرا، شكرا،شكرا، مع السلامة، شكرا، حاضر، لا عليك، وهو كذلك، شكرا، شكرا، طبعا-مع ضحكة مقهورة- مع السلامة، إلى اللقاء، مع.. ، أكيد سينعكس ذلك على اقتصاد البلد وتنخفض تكاليف الحياة ونصبح دولة متحضرة ..

وجهة نظر، لِم لا..

خرجت عند مدخل مبنى المنظمة وتناولت سيجارة، يُصادف أن أرى شابا يحمل مطويات ومنشورات يوزعها على الناس بلا كلل، ظاهرة المنشروات الإنسانية عمَّت

البلد، ساعدوا العمة أم توفيق في إجراء عمليتها، لنجمع التبرعات للطفل حسن المصاب بالسرطان، وهي ظاهرة تستحق الشكران ولا عزاء لمن لا يُباركها، لكن لدي تحفظ صغير، عن نوعية الناس التي تجري في الشوارع وتقوم بالأعمال الخيرية، تلك الشريحة الشبابية التي لا أعرف من أين خرجت للوجود، الفئة التي تنتشي من اللاشيء، تفاؤل مفرط، يريدون أن يغيروا العالم، أو ينتظرون من أعماق أفئدتهم تغيره للأفضل، تلك الفئة التي تقرأ كتبا تدعو للتسامح وترك الحزن، وصدقوني، لو يحصل أن أناقش أحدهم لن أقنعه بأن يتراجع عن سذاجته بالمنطق والعقل، على الأرجح سأقنعه بعدة ضربات على رأسه.

أنا لست مجحفاً بحق البشر، لكن العالم لم يعد يحتمل هذا النوع من الناس، من أين للناس أن يتفاءلوا والحياة خُلِقت لتفترسهم؟ حياة تأتي بهم إليها ثم تلفظهم، واضح أن هؤلاء لم يجربوا شيئا، لم تختبرهم الحياة إلا في علاقة تافهة فاشلة حاولوا صناعتها على مقاسات الأفلام الهندية أو في ضياع ثمن المواصلات ليذهبوا لمنازلهم مشيا بائسين يائسين من الحياة وتوحشها.

أنا أفكر الآن في ما فعلته داخل القاعة، شعور رائع بحق، لا أقدر إلا أن أُفتتن بنفسي مما اقترفت.

عدت للقاعة وريم الموظفة جالسة لوحدها.

يبدو أنني لن أستمر، تركت ريم والمدير يقومان بالعمل لأنني اقتنعت أنه لا فائدة من طرد البقية والمدير قد بدأ يختنق مني، ريم مختنقة من البداية أصلا.

أفكر بالذهاب مشيا إلى البيت، هل تعتقدون أن هنالك طريقة أخرى لأذهب؟، سبق وأخبرتكم أن التاكسي شيء مستحيل، لكن لابد أن أمر على الحديقة الحكومية، المكان الوحيد الذي بقي نظيفا بعد الحرب، وهو نزهة كل من لا نزهة له، مضطر إلى تقبل بعض الضجيج في سبيل مسحة من النظافة.

الضجيج، دائما ما يرتبط فعل الضجيج أمامي بصورة المكتبات الأوروبية، تلك المكتبات التي يكون فيها صمت القبور، حيث يعتقدون أنهم يحترمون بعضهم بذلك من أجل القراءة، لكن الاختلاف بيننا نحن المتأخرون عن الحضارة وهم المتقدمون ليس في الفعل بذاته، بل في مكان الفعل، نحن نرتكب الفوضى في الحفلات والأماكن العمومية والمكتبات الجامعية بالفعل، لكننا نصمت عند دوي الدبابات وانفجار القنابل ونفير الإنذار وصوت الطائرات، نصمت في الكنائس وخطب الجمعة، نصمت عند دفن أحد المسلمين أو تأبين صديق مسيحي، لدينا أيضا مواقفنا وأماكننا التي نصمت فيها وعليه

فنحن لا نختلف عنهم إلا في الأماكن والمواقف، أنا متأكد أنهم يرتكبون فوضى شديدة في أماكن معينة ولا أريد الخوض في ذلك.

لكن لماذا الضجيج والصخب، لماذا هذان المفهومان موجودان في عالمنا، كيف سيكون شكل العالم بدون الضجيج والفوضى والصخب، عالم جديد رائع كما قال هاكسلي؟ عالم جديد مذهل؟ عالم جديد فاخر؟

في رأيي أن عالما بدون موسيقى الميتال عالم لا معنى له.

لست من أولئك الدين يفضلون مكانا معينا يجلسون فيه، قاعدتي الأساسية أن أجد مكانا للجلوس فقط، وأنا أجد الناس يختارونها حيث لا يُكشف ظهرهم للغرباء، أجدهم يجلسون بمحاذاة الجدران، أو أمام شجرة، المهم مكان يُراقِبون فيه ولا يُراقَبون ، إنها طبيعة فطرية، ربما هي إحدى فنون الدفاع لذلك الجزء البهيمي الذي يوجد بداخلنا، نحن نصف حيوان بدون شك وهذا النصف هو من يحافظ على حياتنا، يُتقن فنون الدفاع والتنكّر واختيار الأماكن الآمنة والهروب، من يدرِ ربما نحن في الأصل دجاجات، أو غربان، كنت قد قرأت أن بعض أنواع الطيور تنفشُ ريشها عندما تستشعر بالخطر أو تطلب التزاوج، نحن أيضا ننفش ريشنا، شعيراتنا المحيطة

بجسدنا، عندما نشعر بالبرد أو الخوف أو الإثارة يقف كل شعرنا، إنه الجزء البهيمي الحيواني الذي نتشاركه مع بقية المخلوقات، لابد أننا كنا دجاجات وغربان.

ها أنذا أجلس في مكان وسط الحديقة، من خلفي أناس ومن أمامي ومن كل جهة، لكن لا يزال الموضوع لا يبرح مخي، ماذا عن نصفنا الآخر؟ النصف غير الحيواني، الروحاني كما يحب الناس تسميته، الجزء المتمرد كما أسميه، لماذا متمرد؟ لأن النصف الحيواني هو المسؤول عن حياتنا والحفاظ عليها أما الآخر فهو مسؤول عن قتلنا، نعم قتلنا، الجزء المتسبب في التهور، أولئك الذين يتسلقون الجبال بدون أجهزة حماية ومن يمشون فوق الحبل على ارتفاع شاهق وسائقو السرعة والمظليون، المغامرون الذين يتحدون الطبيعة، كل هؤلاء يشتغل جزءهم الروحي أكثر وعلى هذا فهو من يتسبب بالقتل، أما الذين لا يغامرون ويعتمدون على جزئهم الروحي في التفكير بأشياء معقدة فقط، كالتفكير بالخَلاص والمصير بعد الموت، التفكير في عمل الخير أو نشر السعادة بين الناس، حتى عمل الشر ، كل المشاعر الممكنة نفعلها بنصفنا الروحي الراكد، ولهذا فإنه من المؤكد أن الركود يسبب مشاعر خاطئة، سطحية، الذي لم يجرب في حياته الخطر الحقيقي والصعوبة القاهرة والمآسي لا يمكن أن يكون عميق المشاعر، المشاعر

مثل الأطفال الصغار، لديهم كل الخصائص البشرية لكن تنقصهم القوة، وقوة المشاعر تُكتسب مع التجارب العميقة للحياة، لأن الذي عرف معنى الموت، القهر، الضغط، إذا أحب سيكون محبا حقيقيا، أما من استنزف أيامه في الاعتماد على تحسين مظهره نصف الحيواني فلن يكون أفضل من أي ديك على وجه هذه الأرض وهو منوط بالحب فقط لأنه ديك.

بالنسبة لهذا التشبيه الأخير فإن الفتيات يُشَبَّهْن بالدجاجة، احتراما لجنسهن الأنثوي.

سألني مرة أحد العاشقين عن رأيي في الحب، قلت، الحب والكره والحقد والحسد وكل المشاعر التي تربطنا بالآخرين، مشاعر فاسدة غير حقيقية، وهمية، لأنها مشاعر تنطلق وتنتهي بالافرازات الهرمونية لدينا، قال لي كيف، قلت، إن الشعور بالحب نحو الجنس الآخر يبدأ بسبب ثلاثة أشياء، التقليد، الضعف، الهرمون، التقليد وهو ما يرونه في التلفاز من مشاهد ومسلسلات وأفلام رومنسية، كذلك مما سمعوه عن قصص الحب أو مما قرأوه في الروايات، فيصبح الحب في نظرهم شيئا ضروريا يعيشونه كل يوم، ما يسبب لهم قصورا يوميا في المشاعر، شعور بالفراغ الجفاف، نقص في الجديد العاطفي، أما الضعف، فهو الشعور بالدونية، الفتاة

مبرمجة على كونها ضعيفة لهذا تنتظر ذلك الرجل الذي تستقوي به على حياتها، والفتى يشعر بذلك أيضا لأنه مبرمج على كون أنه لا يزال بداخله طفل يحتاج للحنان والدلال والتربيت على كتفه عندما تسوء أيامه ولا يجد السند، وأما الهرمون، فهو العنصر الأهم مما سبق، لأن العالم قائم منذ البداية على النسل والحفاظ على السلالة وتمرير الجينوم، لهذا فإن الجنس وتفاعلاته وكيميائه وكل متعلقاته هي العنصر الأبرز في علاقة الجنسين، وكلما تحركت الهرمونات أكثر كلما اعتقد حاملها أنه يشعر بالحب، في حين أنها رغبة جنسية تريد أن يُفرج عنها ويُفتح لها الباب لتوضع في مكانها الطبيعي، ما أود قوله هو أنه من المستحيل أن يعيش الشخص الحب كل يوم، أنا عن نفسي لو قُدِّرَ لي أن أرتبط فسأعيش يوما متزوجا وعشرة أعزباً، يُفترض أن يكون العالم كله كذلك، كما أنه ليس هنالك شيء اسمه طفل بداخلك لا يزال موجودا، أي تصرف طفولي سيكون مجرد تنفيس، أو لاتخاذ عذر لنفسك حتى تتخلى عن شيء من ضغط المسؤولية ولو للحظات، وربما هي تصرفات نابعة عن الدهشة من المفاجأة، مفاجأة أنك لم تعد طفلا، لم تعد حراً، فجأة وجدت نفسك مُلزما بحياة الكبار بشكل حتمي دون أن تُلاحِظ، النظافة واللباقة والإذعان والاستقامة والتماهي في تفادي الاخطاء، حياة الكبار ضيقة حقا وخليق بها أن تكون كذلك، كل شيء باقتدار وحسابات

وتفكير، وأكبر مراوغة لا تعونها هو حنينكم للطفولة، يا ليتني أعود طفلا وأمرح وألعب بدون قيود، مراوغة لا تعيها، لأنك تريد العودة طفلا حتى تكسب عشرين سنة أخرى وتعيش أطول، منتهى اللؤم، ثم ما الفرق بين الشباب والطفولة والشيخوخة؟ إنها فترات لا تصلح المقارنة بينها، هل نقدر على المقارنة بين دراجة بعجلتين وسيارة دفع رباعي؟ في الظاهر يمكن المقارنة من حيث مادة الصنع وجود قطع مشتركة، لكن في جوهر المنطق لا يمكن، حيث أن الدراجة تصلح لفعل أشياء ولا تصلح لأخرى، والسيارة بالدفع الرباعي تصلح لأشياء وأخرى لا، وما تفعله الدراجة لا تفعله السيارة والعكس صحيح، كل منهما مناسبة لشيء ولا تتناسب مع أشياء أخرى، الطفل يصلح لإضفاء البهجة والسرور في البيت وفي الأعياد ومناسب جدا ليفعلها على نفسه بدون عقد أو قيود، وسيفعلها في اليوم عدة مرات، دون أن تنزعج أيها الكبير ، والشاب يصلح لفعل أشياء أخرى تماما، قوته وذهنيته وعنفوانه يجعلانه قادرا على المهمات الصعبة وتحمل المسؤولية وممارسة مشاعره كاملة، لكنه لا يصلح أن يضفي البهجة والسرور وأن يلاعبه والداه كطفل صغير، هل تقدر على التضحية بشبابك والعودة لمرحلة تفعلها على سروالك ما تفعله في الحمام ! إنك غير مناسب لذلك، والشيخ لديه أيضا ما يناسبه ومالا يناسب، لهذا، لا داعي لأي مقارنات أو حسرة على مرحلة عمرية معينة، لديك ما

يناسبك وما يتوجب فعله ولو شعرت بخطأ في مرحلتك العمرية يعني أنك إنسان غير ناضج، لا داعي من قصة الطفل تلك لأنها سخيفة.

نحن كبار الآن وانتهى.

لو تتفقون معي فإنه من الأفضل استبدالها بالمشاعر الشخصية الذاتية، حب الذات، تبادل المشاعر مع نفسك، لا مانع من أن تكره نفسك احيانا، تشتم نفسك شتائم حقيقية، لا مانع من أن تشكر نفسك قليلا وتحبها، أو تحاورها وتتكلم معها، لم لا يصل الموضوع لحد ضرب مؤخرتك حتى تعترف بخطئك؟

بعد هذه الرصة من الفلسفة نتوقف قليلا، فاصل، نرتاح فيه، نشرب فنجان قهوة، نفكر في ريم قليلا، نعم ريم، أنا أعرف أن الكثير منكم ينتظر أن نقع في غرام بعضنا وتنتهي القصة نهاية رومنسية، لن يحدث، لن أتكلم عنها ولا يوجد فاصل.

لا أحلى من الفلسفة..

أُعاني متلازمة من نوع ما، لا أعرف اسمها لكنها تحدث لي، الحرب ونفسية الناس، في الحديقة الآن هناك أشخاص كثيرون، يبدو أنهم يعيشون بشكل عادي، يجلبون معهم

أكلا ومشاريب وأفرشة ولُعب اطفالهم، يجلسون بحميمية ويضحكون، كأن سنة واحدة من الاستقرار كفيلة بإعادتهم للحياة الطبيعية العادية، يجعلونني أتساءل يا ترى هذا الانسان عظيم أم وضيع؟، بعد كل ما رآه من دماء ونيران، قوي ضد الحياة ومصاعبها وقادر على الاستمرار مهما أوجعته الأيام؟ أم تراه استسلاما كخيار وحيد؟ ربما أكون مُصيبا في تخميني، الناس يتكيفون ويتوائمون مع أي ظرف، ليس حبا في الحياة ولا كراهية من الموت، هي طبيعة البشر، ينتظمون حسبما هو موجود، ولو كان الوضع أسوأ من هذا لرأيناهم يعيشون كذلك.

ما أعرفه هو أنني أضيف الكآبة لأي مكان أزوره، يستحيل أن أقدم إضافة غير ذلك ولا يوجد غيره عندي، كما أني متصالح مع ذلك، لأنني إنسان حقيقي في نظر نفسي وإن قال عني الآخرون غير ذلك، أنا انعكاس لكل شيء يحيط بي، توجد حرب، ماذا تتوقع أن تجد غير الكآبة؟ حسنا، أنا أفضل شخص كئيب في العالم، كئيب باقتناع، ستقولون يا للتناقض، وسأقول يا للتمازج، أنا لست مزاجيا ولا تتغير نفسيتي بسهولة، متوازن في أغلب الوقت، كما أنني أكره تلك الجملة المبتذلة «علمتني الحياة» ، الحياة لا تعلم أحدا في الحقيقة بل تُعَلِّمُ عليك، وكلما اعتقدت أنك اكتسب حكمة تجابهها بها تجد نفسك في اختبار جديد، هو ليس اختبارا، هو

الطبيعة، الحقيقة، الحياة بطبيعتها وحقيقتها قاسية، ليس مجازا ولا تشاؤما، إنها طبيعتها، الحياة لديها مُكوِّن واحد فقط، الشقاء، غير ذلك من صفات لا تلزمها أبدا ولا علاقة لها بها، لو أن أحدهم قال أن الحياة فيها شقاء وبؤس فهو يصف شيئا بدون إضافات، كأن تقول أن النار حارقة أو أن السم قاتل، وإذا قال أنه توجد سعادة في الحياة فهو مخطئ، وصف الحياة بالسعادة اتهام صريح لها بما ليس فيها، أن يقول أن الحياة جميلة جريمة في حقها ، أنا أعرف أنه توجد أشياء تظهر لنا جميلة وتحقق لنا شيئا مما نسميه سعادة، لكن النار بجمالها حارقة والسم لو كان حلوا قاتل في الأخير، هل تعلمون أن عدد الورود في العالم أقل بكثير من عدد الرصاص؟

سأقر لكم أني مؤمن بوجود السعادة، لكن قبل اتهامي بالتناقض دعوني أصف لكم معنى السعادة، هي شعور لا يرافقه الغضب والكراهية والحزن والملل والتعاسة والبؤس والأسى والخوف والسلبية والإحباط والاكتئاب والفقر وغيره، بمعنى أن السعادة هي غياب هذه المشاعر الموجودة كل يوم على مدار اليوم، ماذا يعني ذلك؟ يعني أن السعادة هي اللحظة التي تغيب فيها المشاعر اليومية، إذا ماهو الشعور الأصيل وماهو الطارئ؟، المشاعر الأصيلة هي التي توجد فينا كل يوم ولا تفارقنا، أما السعادة فهي الطارئ، لأنها لا يمكن أن

تسيطر على بقية المشاعر، لا يمكنها أن تظهر للوجدان حتى تسمح لها بذلك بقية المشاعر، وبالتالي هي أسوأ المشاعر لأنها أضعفها، خديعة ننتظرها سنوات طويلة وتتحقق في لحظات نادرة، ما تلبث أن تغادر وتعود الأمور لطبيعتها العادية جدا، بؤس وشقاء ومرارة...

سأذهب للبيت، وكلي رعب من تلك اللحظة، اللحظة التي ينتهي فيها اليوم وأتكئ على السرير منتظرا النوم، أكره النوم، أحسه مضيعة للوقت، كلما سهرت أكثر كلما رضيت عن نفسي أكثر، أعتبرها ساعات إضافية لحياتي، في الواقع ربما أفضل الساعات هي تلك، حيث أشرب قهوة وأشاهد فلما أو اثنين وأقرأ كتابا وفي الأخير أتمدد على السرير وأفكر طويلا، لا أستطيع أن أنام بسهولة، أفكاري أقوى من جسدي، كأنه صخرة صلبة والنوم ماء يتخللها ببطئ شديد، هل تشعرون أن جسمكم لا ينتمي إليكم أو أنه بشكل من الأشكال عدو؟ أمضي الساعة والساعتين على هذه الحال حتى أُغلبَ على أمري وأنام، المهم، أنا ذاهب للبيت، تعلمون ما سيحصل.

الصباح، ذاهب للعمل، ولا أعرف ما الذي حصل بعد ما تركت المدير وريم يختاران الموظف الجديد.

موظفة جديدة ! قالت ريم، وستأتي اليوم.

- بهذه السرعة إذا، اليوم.
- نعم اليوم.

في الحقيقة أنا لا أبالي بشكل هذه الموظفة الجديدة، لكن المدير حسب ما عرفت هو من اختارها، وجدت على مكتبي بعض العمل فانغمست فيه، إلى أن أتت الموظفة الجديدة لتسألني عن شيء خاص بالعمل، الجميل انها لم تلقي تحية ودخلت في الموضوع مباشرة، نظرت إليها وسألتها من أنت؟

- توظفت بالأمس.
- أهلا وسهلا..

أعطيتها ما تريد وذهبت، كنت سعيدا بهذا اللقاء، تتساءلون لم سعيد؟ ليس للموضوع علاقة بشكلها، لكنها اختصرت الطريق على نفسها وعلي عندما لم تحاول أن تجعل من زمالتنا شيئا حميما، بهذا تكون قد خلصت نفسي عناء كلام فارغ وهذا يريحني، لكن بعد قليل عادت لتخبرني أن المدير يريدُني، ذهبت إليه وقال لي أنه وظَّفَ فتاة جديدة في المنظمة، شعرت أنه يريد أن أبارك له خياره.

أنا أثق في رأيك يا رئيس، وعدت للمكتب..

مديرنا يعاني أزمة ثقة، والأكيد أن الأشخاص العاديين لن يجدوه كذلك حيث أنه صارم ومباشر ومنضبط وكل خصائص المدير موجودة فيه، لكنها مجرد تقليد، رأى مدراء يفعلون هذا وانطلق مهرولا نحو هذا التطبُّع، عندما طلب مني الانضمام للجنة الانتقاء كان يضع كل ثقته بي، ليس لأنه لا يُحسن الاختيار لكنه وجدني في قرارة نفسه أكثر قدرة ومعرفة، هو لم ولن يعترف بذلك لكن ثقته غير مبررة، والآن يطلب مني بشكل غير مباشر وبدون وعي منه أن أرضى بخياره بالأمس، حتى تكتمل ثقته إذا ما فعلت، وقد فعلت، السعادة التي بدت عليه بعد ذلك جعلت بعض تجاعيد وجهه السمين تختفي، لكن تجاعيد أخرى صارت أكثر عمقا، أذن لي بالانصراف وقررت أن أهب خمس دقائق من حياتي لشرب كوب قهوة، أنا آتٍ عم محمود !

الثقة، دعونا نتكلم قليلها عن الثقة، كم من مرة سمعتم في حياتكم أنه يتوجب عليكم أن تتعلموا الثقة في أنفسكم؟ ترليون مرة، ربما قد شارك بعضكم في تجارب أداء أو مسابقات توظيف وقد تسبب له لقاء العمل في أزمة فقدان ثقة فصار كميم الفم كثير التعرق والخفقان، حتى إذا ما انتهى اللقاء شعر أن حملا ثقيلا قد انزاح، وبعد أن عاد للبيت جاءته حالة القنوط والسأم وكراهية هذا العالم البائس الذي تسبب في ميلاده

والحياة التعيسة، أو أزمة ثقة مع أشخاص معينيين، أو كل الناس ربما.. دراما رخيصة بكل ما للكلمة من معنى.

الواقع أنكم لا تحتاجون للثقة، الثقة في النفس موجودة بالأساس في كل شخص، واللحظة التي لا تجدونها تتعرضون للخجل أو التوتر والاضطراب، مما يعني أنها موجودة لكنها تغيب فقط في اللحظات المهمة، إذا ما الذي نحتاجه حقا؟ إنها الخبرة، ذلك الفتى أو تلك الفتاة التي عندما تتعرض لموقف وسط مجموعة يكون فيه هو المقصود فيحمر وجهه ويتعرق، هو ليس فاقدا للثقة، إنما خبرته قليلة في تصدر المجموعة وستسيطر عليه أفكار البهدلة وارتكاب ردود فعل حمقاء، لو أنه مارسها مرات ومرات سيكون من الصعب إخجاله، ولو شارك في مسابقات عديدة لصار موقفا عاديا لا يتحرك له جفن وإن رسب، عندما كنا صغارا ربما نتذكر أول مرة زرنا فيها ذلك المتجر القريب من المنزل، أول تجربة لنا في شراء غرض من هناك كانت لابد أن تخللها خجل وارتباك، لكن المرات التي تلتها كنا نذهب ونشتري وآخر شيء نفكر فيه هو الخجل من صاحب المتجر، ولو أن ذلك الطفل كبر حتى عقل وصار راشدا ولم يجرب شراء شيء من المتجر، ثم شاءت أقداره التعيسة أن يفعل ذلك فسينتابه كثير من التوتر، وذلك هو السر، إنه عديم الخبرة، لو أن أحدا منا ذهب إلى الشاطئ لأول

مرة في حياته بعمر العشرين، كان سيرتبك من فعل أي شيء هناك، بأن يمشي وسط الجماعات الكبيرة وأن ينصب خيمته أو مظلته دون أن يفكر في أن الناس تراقبه، سيكون صعبا لأول مرة فعل كل ذلك دونما خجل مع بعض –كثير– من الارتجاف، ولو تتوالي السنين في الشاطئ سيصبح صاحب خبرة ولن يكيل في نفسه شيئا مما كان يكيل ذات يوم.

إذا أنتم محتاجون للخبرة في فعل الأشياء وليس للثقة.

سألني مرة أحد الأصدقاء كيف نعرف ضعيف الخبرة في العلاقات الاجتماعية، قلت له، إذا روى نكتة وقتلها ولم يُضحكنا.

و هكذا، مرت الأيام والشهور بنفس الحال، العمل، ريم، ندى، المدير، وكل صباح أضرب العلبة المعدنية.

بالمناسبة ندى هي الموظفة الجديدة، وستنتهي قصتها هنا، الكلام لا يحتمل مزيدا من الجنس الناعم وإذا تساءلتم عن إسم المدير فقد قررت ألا أخبركم.

إسمه آدريان، آدريان هوبرت.

يوجد اقتراح من المدير على مكتبي لتحويلي إلى تركيا، أنا وريم، في الحقيقة أنا موافق وسعيد بالخبر،

إنها فرصة لأعيش أياما أكثر نظافة، إنها فرصتي لتحقيق أحلامي، ما هي أحلامي؟ أن أشعر بالتخمة من سيارات الأجرة،المكسرات، الوجبات السريعة.. نعم إنها أحلامي.

لكن، ريم مترددة، يبدو أني سأعمل على إقناعها.

- ريم لماذا لا تريدين لذهاب لتركيا؟
- أبي وأمي لا يتقبلان الفكرة.
- لكنني أنا أتقبلها وهذا كاف لك لا؟
- ليس وقت مزاحك الثقيل.
- أخبريني لماذا يعترضان.
- أنت تعرف أن أخي سافر لاجئا إلى النمسا وقد أرهقهما ذهابه ويفتقدانه.
- هل تعتقدين أنك لو تسافرين سيغضبان؟
- لن يغضبا طويلا، لكن سيؤلمهما المزيد من العناء والوحدة.
- حجتك هذه غير مقنعة يا رمروم.
- رمروم ! منذ متى وأنت تدلعني يا ثقيل.
- حجتك هذه غير مقنعة ريم.
- وأين ذهبت رمروم؟
- رمروم ستبقى هنا، أريد ريم القوية التي لا تفكر كثيرا في مشاعر والدها على حساب مستقبلها.

- أنت ضعيف في الإقناع على فكرة.

- حقا؟ أخبريني كيف ستكونين بعد عشر سنين؟ الأغلب أن والديك لن يبقيا على قيد الحياة حتى ذلك اليوم، وساعتها سيتوقف العالم عن قبولنا كلاجئين بعد أن يمل الناس من الحرب ويعود السلم، لا تقولي لي أنك تحبين وطنك وتريدين البقاء فيه عندما يصبح آمنا.

- لكن هل لدينا خيارات أكثر ملائمة من المكان الذي ولدنا فيه؟

- عزيزتي، ذلك المثال الذي يشبه الوطن بالأم مثال سخيف وغير منطقي، لأن الأم معطاءة وتتفاعل وتتكلم ولا تكن سوء نية أبدا وكل الصفات الجميلة موجودة فيها ،تشبيه الوطن بالأم تشبيه رديئ منطقيا، أقرب تشبيه لذلك في رأيي هو البيت، لو كان أهلك يرفضونك كل يوم بقرار يحطم عظامك كيف ستحب بيتك؟ ، الوطن الذي يصدر قرارات تحطمك وترفض أحلامك ولا تتحقق فيها طموحك ليس أما ولا وطنا، إنه الجحيم، نحن لم نختر أوطاننا يا ريم حتى نُرغمَ على حبها، ولو كنا اخترناها من البداية فسيكون من الواجب الاخلاص لها.

لن أستغرق وقتا طويلا للحديث بشأن الوطن، الموضوع كله بالنسبة لي خديعة تاريخية بعد رسم الحدود الوهمية ومن ثم إغراق الشعوب المحاصرة بتلك الحدود بشعارات الوطنية والقومية، حب السلطة جعل السياسيين يمارسون

كل أشكال التعبئة العصبية والقوميات، الزعامة والقوة وضمان مكانة في المؤتمرات مع مصاف الزعماء ومصاف سطور التاريخ والجغرافيا، كل ذلك فوق ظهور البسطاء، كل ذلك وجماجم الفقراء تتحطم.

شعرت برغبة بمغادرة العمل باكرا اليوم، بعد ذلك المقترح في تحويلي صرت لا أشعر بالانتماء لهذا المكان، لقد أصبحتُ تُركِياً في أقل من نصف يوم، لكن لن أفعل شيئا يدعو للامتعاض حتى لا أتصادم مع المدير ويتوقف عن دعمي، المهم، بعد انتهاء الدوام ذهبت للبيت مباشرة، لا نزهة ولا حدائق ولا أي شيء، حتى أني وجدت علبتي المعدنية في مكانها ولم أشأ أن أضربها، لم تعد تنتمي لي هي أيضا، لأول مرة استشعرت الشوارع كيف هي، صرت أرى كل شيء غريبا في هذه المدينة، بعد أن ألفت كل أشكال الأوساخ والروائح الكريهة والطرق المهترئة والجدران المثقوبة ما عدت أجدها مألوفة عندما فكرت في المغادرة، أعدد ثقوب الجدران وحفر الطريق، لم أبالي بالأشخاص يوما عندما يمرون بجانبي، اليوم أنا أراقبهم كلهم، عيون كثيرة غائرة شاحبة، لم تُحَسّن تسريحاتهم ولا ملابسهم من بشاعة الحرب وصعوبة الحياة على مُحيّاهم، لم أشك يوما أني أعيش في جحيم، لكن اليوم اكتشفت شيئا غاب عني دائما، أنه يمكن الحزن على من يعيش في الجحيم، حقا.

يا للهول، أكاد أكون شاعرا، ما الذي حصل لي، ما هذا الكم من الأحاسيس الذي لبسني، لأنني مغادر؟ هل يجب أن أكون شاعريا وأفعل كما يفعل الناس؟ أيجب أن أعيش لحظة وداع؟ لا، طبعا لا، لن أحزن على شيء.

أتذكر ذلك اليوم الذي ماتت فيه كل أحاسيس البشر المبتذلة عندي، عندما فقدت الإيمان، لكن مع عودتي إليه لم أقدر أن أعود بشكله القديم الذي كنت أعيشه ، لم اتخلص من الإلحاد كلية حيث أنني صرت ملحدا بالحياة، لا أؤمن بمشاعر البشر ولا إنسانيتهم، الانسانية وليدة ظرفها فقط، مثلا لو كان الشخص يرى صور الأطفال المقتولة كل يوم هل سيحتفظ بكامل تأثره؟ لا بد وأن الصور ستصبح مألوفة لدرجة أنه لن يجفل للحظة إذا ما رآها، لدي شخص أعرفه يشتغل في الإغاثة المدنية، في بداية عمله كان يتقيأ من هول المناظر الدامية والأذرع المبتورة والبطون المبقورة، لكن بعد مدة صار يحمل أحشاء الجثة المرمية من على بعد أأمتار ليعيدها إلى جوفها، أو مخاً من رأس أو طرفاً من جذع.

المشاعر الانسانية وليدة لحظتها فقط، وتموت من بعدها بالضرورة.

لن أتذمر اليوم من طبخي، لدي شعور جيد بسبب قصة سفري، سأغادر إلى بلد على الأقل فيه نظافة، وفيه أمن

ومطاعم كثيرة وترفيه.

ريم تتصل!

- مرحبا، ستسافرين أنا أعرف.
- يا لك من ثقيل، على الأقل احترم حزني على مفارقة والداي وحزني لمعركتي التي خضتها معهم منذ قليل، ثم من قال لك أني سأسافر.
- ريم، بعد بضعة سنوات ستتذكرين تلك اللحظة التي قررت فيها السفر حتى ووالداك غاضبان، وستقولين لحظتها أني فعلت الأمر الصواب.
- لا أعرف، أنا مضطربة ومشتتة الذهن
- لا عليك يا ريم، المهم ستسعدين برفقتي.
- ستكون معجزة أن أستمتع بوقتي معك أيها الثقيل.
- ستقعين في حبي ولن تستطيعي مقاومتي.
- ...
- تصبحين على خير
- ..
- حسنا، لكن تذكري، لا يوجد شخص في هذا العالم لا أقدر على إقناعه.
- يا ثقيل ! سأتراجع عن قراري إذا.
- أنا أمزح.
- حسنا..

- لا أحد قادر على الإقناع مثلي.
- أغرب عن وجهي.

بعد أن أقنعت ريم ، تبقى لي أن أقنع نفسي، نعم نفسي لا تتفاجأوا، عندما قالت أنها موافقة شعرت بمسؤولية تجاهها، لأنني سأكون على الأقل في نظرها السبب في ابتعادها عن أهلها والحياة هناك ليست مضمونة، ماذا لو لم تنجح في الاستمرار هناك، ستخسر كل شيء، أنا لست قادرا على تحمل مسؤولية أي شيء، لست قادرا أن يأتي يوم لتخبرني أنني السبب فيما يحصل لها، وإذا كنت قادرا على إقناع كل البشر من يقدر على إقناعي، لكن لحظة، هاذا الضعف، لهذه الدرجة صرت أفكر بالآخرين! ، منذ متى وأنا آكل هم شخص آخر، حتى وإن تسببت له بغضب أو حزن أو غير ذلك، من عادتي التعمد في أن أؤذي الناس حتى لا أؤذي نفسي، سأنام، لتذهب هذه المشاعر للجحيم.

كيف لم تتفاجأوا بقراري في النوم وكأنه مُتاح بسهولة؟، هل عهدتموني أن أنام هكذا بدون أرقٍ وكلامٍ فارغ!

بدأتم تُرعبونني.

ستسهرون معي قليلا، بالمناسبة أنا متصالح مع الأرق

ولا يُغضبني، على الأغلب بعكسكم، ربما تجدونه يسلب وقتا ضروريا للراحة ويتسبب بالتعب في اليوم الموالي، لهذا تكرهونه، لكن، تكرهونه بسبب الواقت الضائع أم التعب؟ إن كان التعب فنحن متفقون وحق لكم أن تبغضوه، أما إذا كان الوقت الضائع فإنني ضد هذا الافتراض، يوجد وقت كثير لنعيشه في الحياة، فائض من الأيام، بشكل مترف، لكنكم تتعاملون معه بنسبية شديدة، تأكدوا أنكم ستصلون إلى النهاية وأنتم قد شبعتم من الأيام، ستستقبلون الموت بصدر رحب، لهذا لا تجزعوا إذا ما أصابكم أرق يضيع وقتكم، الوقت متوفر فوق حاجتنا ولا مانع من تضييع بعضه في السهر، الأرق ليس نتيجة مرض أو نفسية سلبية، إنه موجود فينا، بداخلنا، حالة وسطية رتيبة بسيطة بين الخمول والنشاط، ربما ستجده أجمل فترة في يومك إذا ما تصالحت معه ورحبت به.

بمناسبة الموت، أجده شيئا مرعبا، من الصعب تقبل فكرته ببساطة هكذا، إنه اكثر الأشياء التي عرفها الانسان دراماتيكية، تنطلق منه الأسئلة الوجودة وتعود، كل شيء متعلق بالموت، هل لاحظتم أننا نسابق الموت وليس الحياة؟، هدفنا في الحياة فعل أشياء كثيرة قبل أن نموت، كثيرة جدا لا حصر لها، ونحن نخاف أن نضعف عندما نشيخ ونخسر قوانا ونجد أننا لسنا قادرين على

الاستمتاع بحياتنا، إنها الحقيقة التي يعيشها الكل تقريبا، لكن بالرغم من أني أجدها وتجدونها على الأغلب فكرة مرعبة، لكنني متأكد أنكم عندما تكبرون ستملون هذه الحياة حتى ولو لم تحققوا أشياء كثيرة، ستكبرون وتجدون أنفسكم متقبلين فكرة الموت ومستعدين، لأنه قد أُتيحت لكم الكثير من الأيام، وستسأمون من كل شيء بسبب كثرتها.

لماذا لا يستمتع الكبار بالحياة؟ لسببين، أولا، أن هرموناتهم وإفرازاتها ووظائف الأعضاء وكل ما يتعلق بالجسم يضعف، يصابون بالخمول وتراجع النشاط وبالتالي تقل الرغبات والمشاعر على العموم، ثانيا وهو الأهم، أنهم وفي لحظة الكبر قرروا أن يتوقفوا عن التفكير طويلا لأن ذلك لم يعد مفيدا بعد أن ضعفت كل الرغبات، وهو ما يتجلى للناس على أنها حكمة الكبار التي ينالونها حين الكبر، قلة الكلام والألفاظ المنتقاة لحظته، لكن في الحقيقة هي ليست حكمة، إنها فراغ، فراغ شديد في التفكير، لأنهم طول الحياة كانوا يفكرون بشكل مستمر، لكن يجب أن تعرفوا بأن السببين مترابطان ببعض بشدة، لهذا فإن قرار التوقف عن التفكير لن يصيبهم بالحزن أو الاكتئاب، لأن الرغبة في التفكير أصلا قد صارت ضئيلة، ثم يأتيني أحدكم ويقول أن تجاربهم علمتهم الكثير وعليه فهم أكثر حجمه منا، يا

صديقي – ويا صديقتي- هو أكثر تجربة ونحن أكثر علما، نحن درسنا وقرأنا وصارت حياتنا سريعة جدا وما يجربه هو في شهر نخبره نحن في ثلاثة أيام، ما جربه في حياته أنه تعلم ماذا يختار وماذا لا يختار، وأغلب حِكمة الكبار تنحصر في -لا تفعل-، لأنه صُدم كثيرا وصفعته الحياة كثيرا حتى صار لا يقدر على المجازفة، وبهذا فإن حكمة الكبار تتلخص في نصيحك بعدم المجازفة، وربما لو جازفْتَ لنجحت في إحدى محاولاتك نجاحا مبهرا !

تصبحون على خير..

صباح الخير، يوم جديد، ونفسه ذلك التفائل الصباحي المبرر بالهرمونات التي تكون في أقصى نِسبها صباحا، هذا ما يحدث لكم إذا كنتم تشعرون بتفاؤل الصباح، خدعة بيولوجية.

سيجارة، قهوة، سيرا على الأقدام عبر الشوارع، العمل، عم محمود الذي سمع باقتراب سفري وحاول إصلاح علاقتنا لكنه فشل، والمدير يُجهز نفسه للسفر معنا للفرع الجديد عبر الضغط علينا بعمل مضاعف حتى يترك مكانه صعبا على المدير الجديد، إلى أن التقيت ريم جالسة مع ندى تتكلمان.

- صباح الخير، قالت ريم.
- صباح الخير، قالت ندى.
- ماذا تفعلان؟ ، قلت أنا.
- أعطانا المدير عملا كثيرا ونحن نتفق على تقسيم العمل
- جميل، لابد وأنه ترك لي نصيبا من المشقة
- كل الاوراق موجودة على مكتبك.

ذهبت لمكتبي وبدأت الترجمة، بالعادة أقرأ أشياء يغلبني الضحك عليها وربما لو قرأها آخر لشعر بالحسرة، أنا أقرأ الآن موضوعا عن الحد المقبول من الضغوط النفسية حتى يُقبل الشخص كلاجئ سياسي في أحد الدول المستقبِلة، نعم الهجرة بسبب الضيق النفسي، أعجبني تقدير كاتب النص القانوني للحالة النفسية المطلوبة عندما قال أن الشخص إذا تعرض إلى تدابير من بلده تؤدي إلى إرهاقه نفسيا فهو مقبول في قوائم الهجرة واللجوء، فوقع في ذهني مئات الملايين من العرب والشرق آسيوين والجنوب أمريكيين الذين أرهقتهم تدابير بلدانهم لدرجة أنهم يعيشون من بين تحت خط الفقر والخط تحت إنساني، هل أفهم من هذا القانون أن كل هؤلاء معنيون بالقدرة على الهجرة؟ هل سيكلف نفسه بالنظر إلى كل شخص يعاني في العالم؟ من هم الأشخاص المعنيون من بين مئات الملايين؟ إنهم

من تناولهم الإعلام فقط، أعطني مصورا بارعا وطفلا يصرخ ومبنى محطم في الخلفية وسيتناولك الإعلام بشكل عالمي، سيقبلون لجوئك، أما إذا كنت تفكر في الانتحار بسبب المعيشة القاسية فإن المصور لا يمكنه رصد حالتك لأنك لا تعنيه، لأنها لا تُدر عليه مالا، لهذا فإن قانون اللجوء يعمل تحت ظروف معينة فقط، حسب مزاج السياسي ورجل الإعلام.

- المدير يريدك نادر..

هل تتخيلون أن حياتنا مبنية على الشيء الثاني دائما ، الضربة الثانية، الخبر الثاني ، المرحلة الثانية، الساعة الثانية، اليوم الموالي..؟

قانون بشري لا يتغير، توجد نظرية عسكرية تقول أن الأقوى هو من يقدر على الضربة الثانية، لأن الأولى تقدر عليها كل الجيوش، وبعد استنزاف المعركة الاولى فإن الأقوى هو من يستطيع أن يستجمع قواته أكثر من الآخر ويضرب الضربة الثانية أقوى من الآخر فينتصر أو يقترب من الانتصار، نستطيع تعميم ذلك على كل ما نجربه في الحياة، القوي هو من يستطيع تحمل الخبر السيء الثاني وليس الأول، لأن الأول ستتحمله على الأغلب والذي سيستنزف أعصابك، لهذا فإن الخبر الثاني سيطيح بجهازك العصبي ولن تقدر عليه إلا إذا كنت قويا، القوي

هو من يستطيع احتمال الساعة الثانية التي تلي الكارثة او المصيبة، كأن تتعرض لحادث يُدمر سيارتك، ستتعايش مع الحادثة في الساعة الاولى بحكمة على أساس أن تحمد الله على سلامتك وأن الماديات لا تُهم بقدرها، لكن في الساعة الثانية بعد الحادث ستبدأ بالتراجع والتحسر على فقدان سيارتك باهظة الثمن، وهكذا الساعة الثالثة فالرابعة، وبعد عديد الساعات –في اليوم الموالي- ستنهار لأنك متأكد أن تعويض سيارتك شبه مستحيل أو مستحيل أساسا.

لماذا أقول هذا الكلام؟ لأنني أعيش هذه اللحظة الآن، المدير يريدني وأنا لا أريده أن يريدني، ماذا لو أخبرني أن فكرة سفري قد أُلغيت، ماذا سيحدث لي بعد الساعة الثانية من تلقيً هذا الخبر، اللعنة على الساعة الثانية، تعلمون أنه مهما حدث لي فإنني سأتصالح مع نفسي ومعه سريعا ثم أستمر دونما تذمر، لكن شيئا ما عالق في قلبي هنا، أريد التخلص منه، لا أستطيع أن أصفه جيدا، لكنه كالنغزة في صدري، دقة مسمار، نعم دقة مسمار هذه هي، أشعر أن قلبي لم يتحرر تماما والسبب هو المكان، أتذكر فلم «آلام المسيح» الآن، كم أحسد البطل، كلها ثلاثة أيام ونزل من على الصليب، أما قلبي، مصلوب داخل صدري لأكثر من ست سنوات.

لم يحصل، المدير طلبني من أجل العمل لا غير وأكد لي أني سأسافر، لابد وأن نظرية الساعة الثانية لديها نقيضها الجيد، عندما تتوقع خبرا سيئا ثم تكتشف أن لا شيء مما تخاف منه سيحدث، بالمناسبة، أكاد أتيقن أن ما نخافه في مستقبلنا ليس هو سبب مشاكلنا، حيث أننا نخاف من وقوع شيء وكل المعطيات تدل على وقوعه قريبا، لكن بعد مدة تكتشف أنه لا شيء يُذكر، بالمقابل فإن كل مشاكلنا غير متوقعة تماما، وستمر أيامك بنفس التعاسة والكآبة، لكن المشكلة أنك تعيس لأسباب لن تسبب لك تعاسة، وبالتالي فأنت تعيس بشكل مضاعف، تجابه مخاوفك من المستقبل التي لن تحدث ثم تجابه المشاكل التي لا تتوقعها، دائما في خسارة..

دائما..

المهم أني سأسافر، وأتوقع أن تتراجع ريم عن قرارها وأنا لن أحاول ثانية في إقناعها.

- لازلت في قرارك يا ريم؟
- لست متأكدة.
- أنت تراجعتِ يا ريم، ولا تريدين أن تلفظي كلمة الرفض فقط لأن هنالك متسعا من الوقت.
- لا أقدر على القرار، كلامك يهدر في ذهني منذ ذلك اليوم، لكنني أجد نفسي غير قادرة على حسم أمري.

- حسنا ريم، أعتقد انه من الأفضل أن تبقي هنا، لا أريد ان أراك نادمة في تركيا.
- تذهب وحدك إذا؟
- ومنذ متى كان لي شريك.
- ... !

في الحقيقة كنت لئيما مع ريم، قلت آخر جملة وأنا عند الباب مغادرا، هكذا أُخلي بنفسي عن أي مسؤولية تجاهها وإن قررت الذهاب فلن أكون أنا السبب، أشعر براحة كبيرة، أما أنا، فقد خُلقتُ لأعيش وحدي.

لم أُخبركم ربما عن تلك اللوحة المعلقة خلف مكتبي، إطار به صورة منظر طبيعي، منظر لا يعكس طبيعة المكان لا من الداخل ولا خارجه، لم أُفكر قط فيمن فكر بوضعها كيف كان يُفكر ! تحسين شكل بناية تكاد تكون أسوأ بناية في المنطقة مثلا؟ ، ثم إن ثقافة اللوحات بالجدار تُعتبر فنا لوحدها لدى الفاهمين، وأي تعدٍّ على خصوصية هذا الفن يُثير الاشمئزاز، والداعي للاشمئزاز أكثر هو طريقة تناولنا نحن لهذا الفن، الفنون الأوروبية كانت أحد الأسباب الرئيسية في انتقال أوروبا من العصور الوسطى إلى عصر النهظة، لهذا فهي تُمثل تاريخا وهوية للأوروبيين، اسألوا دافينشي، لكن في بيوتنا، تُعتبر شيئا ليس بذلك العمق، لا يحتاجون أن

يفهموا معاني اللوحات، الأهم هو شكلها الجميل، وربما أسهل شيء هو اختيار لوحة لوضعها بغرفة ما، في أحسن الحالات تكون صورة فواكه للمطبخ، صورة منظر طبيعي للصالون، والمُلفت للانتباه هو الاختيار الدؤوب الدائم لصورة طفل يبكي أو شيخ حزين أكلته التجاعيد بقيت له دقائق ويموت !

ربما يعرف كلنا أن الذوق صفة نادرة في بيوتنا، ذوق مفقود، لكن صورة الطفل والشيخ تعطي انطباعا لطريقة تفكيرهم، إنهم يخافون الحياة والموت، هكذا جملة واحدة، لا يوجد لدي تفسير آخر استعيض به، يخافون الحياة عندما نراهم يعشقون صورة طفل يبكي، يبلغ التشاؤم نصابه الكامل ويموت التفاؤل بمجرد النظر للصورة، يا للهول، يا للجثث الحية، كما أنهم يعبرون عن خوفهم من الموت عندما يعلقون رمز الاقتراب منها، الشيخ، يتذكرون الفناء والنهاية المرعبة عبر تجاعيد الصورة.

الصورة على الجدار من خلفي، أشعر أن مسمارها دُقَّ على كتفي وعُلِّقت عليه، وزن إضافي مجاني لا حاجة له، لم أرتح يوما لمكانها ولم أشأ أن أغيرها لأني لا أحب النظر للأشياء اللامنطقية، والسبب الرئيسي الذي تعرفونه أنني لم أغيرها بسبب الكسل.

- نعم ريم ما الأمر؟
- تعال نشرب قهوة.
- سأنتظرك عند باب المبنى الخارجي، لا أطيق عم محمود.
- حسنا..

تقريبا أنا أعرف ما الذي تريده ريم، تحاول ان أملأ رأسها بفكرة السفر، تُريد أن أقلب مزاجها حتى تتغلب على مخاوفها وأن أعطيها الأمان في حال سافرنا.

- ماذا تريدين.
- لن أسافر نادر.
- كما تريدين.
- يا سلام، كأنك لست ذلك الكائن الذي حاول إقناعي بالسفر قبل أيام !

- لحظة ريم، لا يمكنني التشبث بسفرك لأن هذا أمر يخصك وحدك، ماذا لو حصل لك مكروه هناك؟ ماذا لو مات والدك أو والدتك وأنت هناك؟ ستشعرين بالذنب وربما تضعينني على رأس قائمة أسباب فشلك وتعاستك وحياتك اللعينة، لا أريد إقناعك بشيء ولا الوقوف بطريقك، كما أنه لا يمكنني تقديم وعود أو شيء من هذا القبيل، بماذا أعدك ريم؟ الأمان؟ الطمأنينة؟ قبل هذا هل أنا آمن ومطمئن؟ ثم ماذا لو قررت أن اتخلف عن المنظمة

وتغيير وجهتي نحو مكان آخر أو العودة ماذا ستفعلين؟ لا أستطيع التكلم على طريقة الأفلام، من السخافة أن أحاول التربيت على كتفك كل مرة تشعرين فيها بقلة الحظ، سينفذ رصيدي في قدرتي على إقناعك بشيء إذا تكرر عدة مرات، لا يمكنني مواساتك بعبارات أثبت التاريخ ابتذالها وعدم صلاحيتها في العالم الحقيقي، كأن أقول أن الليل مهما طال سيحل النهار، أو أقول أنه بعد الظلام سيأتي الفجر جالبا معه الضوء، عبارات سخيفة ليست حقيقية، إن الحياة مظلمة في طبيعتها والسواد هو لونها والليل دائم فيها والفجر لا يأتي إلا في قصص الأطفال ! أنا قادر على الإساءة لنفسي عن قناعة، قادر أن أؤذي غيري في سبيل عدم إيذاء نفسي، لكن أنت لا تستطعين سوى مجابهة قسوة العالم بالصمت، أنت دائمة الصمت يا ريم، تحترقين من الداخل، قلبك تشقق من كثرة الأيام التي تعاديك، ولن تفعلي شيئا حيال أي شيء سوى ما تفعلينه عادة، المرور بأقل عدد من الكلمات.. لماذا البكاء الآن!

- ما الذي تتوقعه مني يا أحمق!

ذهبت ريم، وذهب معها آخر بقايا الإنسان الذي كان بداخلي، أما أنا، عدت إلى المكتب، حاولت ترجمة بعض السطور ونجحت، ثم حاولت الاستمرار حتى أنتهي من

العمل كله، نجحت أيضا، لكنني أنتهيت ليلا، عملت بشكل بطيئ لدرجة أني انتهيت بعد أن حل الظلام، لماذا بشكل بطيء؟ تعتقدون أنني أشعر بالذنب؟ أبدا، أكاد أضحك من توقعاتكم هذه، منذ متى عهدتموني صاحب عواطف ومشاعر، يا لكم من أشقياء.

بعد أيام..

جهّزتُ حقيبة صغيرة فيها كل ما أحتاجه، بعض الغيارات، بعض الأدوات، وقليل من المال المتبقي، منتظرا أحد جيراني الذي اتفقت معه أن أبيع له منزلي بالتقسيط، بنصف الثمن، تخيلوا كم يُقدّر نصف الثمن إذا كان ثمنه ربع ماكان عليه قبل الحرب.

- أهلا عم سالم.

- نادر، تُذركني بوالدتك، انت تعلم أن عائلتك عزيزة علي وكنتم أحسن الجيرة، ربما ستشتاق لبيت الطفولة والذكريات، لكني أحتاج للبيت لأنني اتفقت مع أولادي أننا سنبقى هنا دائما.

- عم سالم، أُقدر مشاعرك لكني لست بحاجة لأي منها، أنا مسافر بلا عودة، كما أنني فاشل في استرجاع أي ذكريات، أنا مضاد لهذه الأشياء لا تقلق علي.

- حسنا نادر، سأعطيك أول قسط حتى تُنفقه في سفرك.

- شكرا عم سالم، أُقدّر لك ذلك.

عم سالم، كان يحاول إثارة مشاعري، ربط موقفي في السفر بعائلتي المتوفية ورابطة الجيرة، كان يشعر بما يُفترض أن أشعر به، وأراد مشاركتي بذلك لكنني لم أفعل، لماذا لم أفعل؟ لأنني قاسٍ لهذه الدرجة ولا مشاعر عندي؟ لا أبدا، عندما تكلم عن والداي شعرت بحزن بداخلي، تذكرت كل شيء فعلاه من أجلي، وتذكرت يوم وفاة أبي، كان شخصا عاديا، ولأنه أبي فلا يمكنني وصفه بالعادي أبدا، كذلك انتم، ترون آباء الناس أشخاصا عاديين لكن الأب شخص مختلف، إنه شعور البنوة، أنا لم أفقد ذلك الشعور لكنه رُدم، رُدم بقسوة، ثم ماتت والدتي بعده بسنتين، بكيت كثيرا ، مرتان، ولم أستطع التخلص من حُزني لثلاث سنوات، كنت أرى تحت الأنقاض والدي يرقد، في كل مكان يوجد فيه جدار محطم أو سقف واقع ركام، أرى فيه أبي محصورا داميا ميتا، عند الانفجار أسمع أمي تصرخ، واذا رأيت امرأة في مثل عمرها أنهار تماما، ثم أسأل لماذا لم تمت هذه وبقيت أمي على قيد الحياة، وفي لحظة من اللحظات لم أعد أشعر بقيمة أي شيء، بدأت أشعر بالعدمية المفرطة، صرت أرى الأرض صخرة عملاقة والسماء شيء كبير تافه، صرتُ أرى الناس مجرد أشياء ضمن الأشياء، لطخات بلازما ثلاثية الأبعاد، بدأت حقا أُقارن بين الناس

والصراصير، وقد اقتنعت حينها أنه يتوجب علي احترام الصراصير إذا كنت مُلزما باحترام الناس.

لم أعُد أفجع من الموت بعد السنوات الثلاثة التي تلت موت والدتي، ما الفرق، مجرد صرصار آخر مات، دعسته قدم دبابة أو إصبع ديناميت، من صفات الطبيعة أن الأقدر على البقاء والاستمرار هو الأقوى، ليس القوي بل الأقوى وهؤلاء من يموتون ليسوا كذلك، صرت أفكر أن الانسان لا يمكن أن يكون شيئا مختلفا كما قلت، لهذا فإن الأقوى يقتل الضعيف ويأكله ويستعبده ويفعل ما يحلو له به، ولو دارت الدوائر وكان ذلك الضعيف المسكين هو الأقوى فإنه لن يكون أفضل حالا، سيستعبد ويقتل ويُهيمن ويُسيطر.

حتى وإن كنا في بيئة مسالمة فإن السلام لا يمنع القتل ولا يمكن انتزاعه واجتثاثه من مواويل البشر ولا إمساكه من تلابيبهم، إنه طبع فيهم مع اختلاف طفيف، في زمن السلام تختلف طرق القتل فقط، الإقدام على القتل مغروس فينا منذ الصغر، نحن سفاحون مع وقف التنفيذ، وإلا كم واحدا يَقتُلُه الأطفال عندما يلعبون لعبة الطيبين والأشرار وكم روائيا قتل شخصيات روايته بدون رحمة؟، حتى أساطير القدماء لم تسلم من حوادث القتل بين البشر والآلهة، إنها صفة من صفات الطبيعة التي لا يمكن أن

يعاديها الإنسان ولا غيره.

اليوم، أنا لست بائسا ولا يائسا، فقط أحاول أن أكون أفضل من الصرصار الذي تدهسه دبابة، لا أحب الموت ولا يُحزنني موت أحدهم.

هل تعلمون أن مجموع الحاضرين يوم جنازتي أو جنازتك مرهون بحالة الطقس يومها؟

أفكر بالذهاب لتركيا ليس لمغامرة جديدة في حياتي ولا من أجل العيش بطمأنينة، أريد السفر كي لا أسمع الأحاديث المعادة والمعتادة والمبتذلة، ليس لأن الإنسان التركي يُحسن الكلام، لأنني لا أحسن التركية ولا أفهمها.

موعد السفر غدا، كل شيء جاهز، أتممت آخر دوام لي وخرجت دون أن ألتفت للمدير أو ريم أو ندى أو عم محمود، لا أحب جو الوداع، ليس لأنه يشعرني بالحزن، كما قلت لا أطيق المشاعر وبروتوكالاتها، خرجت مباشرة، ذهبت لأحد المقاهي حتى أترصد سائق تاكسي فأتفق معه على زيارتي صباحا بالمبلغ الذي يريده حتى أصل للحدود باكرا، أربع ساعات، وجاء الرجل المنشود واتفقنا على مبلغ مُرعب، لكنني أبيت إلا أن يوصلني للبيت وأعطيه عربونا، اعتقد أنني فعلت ذلك حتى

يضمنني، ذلك صحيح، لكن السبب الأكثر أهمية هو أن أصل للبيت مرتاحا.

لعشرين دقيقة، كنت أسمع درسا في الوطنية، لم أنبس ببنت شفة، لم أجرؤ على الرد حتى لا يغضب مني وبيننا مصلحة.

لست متوترا، في الماضي كانت تؤرقني فكرة السفر فأبقى الليل يقظا تماما، لكن الأرق سيلازمني لأنني اعتاده، لكن، تفطنت اللحظة أني منذ مدة طويلة لم أمارس الدعاء، لم أرفع بناظري للسماء حتى أطلب العون من الله أو لطفه في شيء ما، تملكتني رغبة شديدة في طلب عونه هذه اللحظة، لا أريد لشيء أن يُعطّل سفري، ريم تتصل بي ولا أرد، لن أرد.

نمت ساعة واحدة، قمت وحضرت قهوة سيئة، دخنت بعض السجائر معها واستحممت، وصلت سيارة الأجرة، حملت الحقيبة ووقفت، طأطأت رأسي نحو سجادة الباب، هل يجب أن أنظر للوراء كما يحصل في الأفلام وأستذكر ذكرياتي وأشعر بالحزن؟

لا..

خرجت ونزلت الدرج وعبرت المدخل والرصيف،

أعطيت الحقيبة للسائق وركبت، انطلقنا، كلها ثوان حتى رأيت منزل جارتي العجوز فيه ضوء بالنافذة، ربما عادت ابنتها أخيرا، استمر السائق في درس أمس وأنا صامت تماما، سعيدا، أرى نفسي أتخلص من هذه المدينة الغبية، ريم تتصل وأنا لا أرد.

خضعنا للتفتيش عدة مرات، كلما اقتربنا من الحدود أكثر كلما كثرت حواجز الأمن، تساءلت لحظتها عن سبب ذلك، لماذا يزيد التضييق على الهاربين ويردون الحفاظ عليهم في وسط الحرب، توجد عدة احتمالات، ربما لأن زعيمنا لا يريد للناس أن يهربوا ويتركوا الحرب لأن الحرب ليس لها قيمة بدون ضحايا، وهؤلاء ضحايا الحرب المُحتملون فكيف يُسمح لهم بالفرار، أو لأن زعيمنا لا يُريد أن يظهر بمظهر غير لائق، لا يُمكن أن يهرب شعبه من دولته العادلة الجميلة الآمنة فيراه العالم يُشرّدُ الناس بغير حق وهو ليس كذلك.

وصلنا للنقطة الحدودية، نزلت من السيارة وتقدمتُ للشرطة، تم تفتيشي ومصادقة الجواز في أقل من أربع وعشرين ساعة، كنتُ أتوقع أكثر، ما الذي حصل خلال الأربع والعشرين ساعة في رأيكم؟

لم يحصل شيء..

بعد شهر من وصولي أصبح كل شيء هادئا، رتبت فيه روتيني الجديد، ، صرت استغنيب عن بائع الخضار واستبدلته ببائع الفواكه، لا أذهب للبقال، سيارات الأجرة تملأ الشوارع، أُصِبتُ بتخمة من سيارات الأجرة، كل شيء في مكانه وكل شيء نظيف، إنه المكان المثالي الذي يمكن التفكير به في السؤال الأزلي أكانت البيضة هي الأولى أم الدجاجة؟ تلك الأسئلة التي تحتاج معدة ممتلئة.

أزور الكثير من الأماكن، المكتبات والمتاحف والمساجد والكنائس، صار يومي لا يكفي، أنام أقل من ساعتين في أول الأيام وكأنني أعوض ما فاتني هناك، لكن، بالرغم من أن هناك كان حربا وأياما كئيبة، إلا أنه علمني كيف لا أكون عبيطا وسخيفا وساذجا، لهذا أنا أشعر بالامتنان لهناك، ولولا تلك القسوة التي أحاطت بي مدة طويلة لكنت لازلت فيه، مثلي مثل البقية.

لولا هناك، لما اكتشفت الفرق بين المستحيل والصعب، أو عرفت أن الحظ كذبة لطيفة ولا يختلف في جوهره عن جوهر الموت، لما عرفت أنني أصغر من أن أُبدي قناعات، لما عرفت أن المبادئ وُجدت كي ندعس عليها في أول فرصة، لما عرفت الكثير عن الجوع والبرد والرعب والإرهاق والألم، لما شعرت بجمال الصلاة في

المسجد أو الكنيسة، لما عرفت أن جيراني لا يزالون يعيشون الحرب العالمية الاولى، لما تعرضت لمشكلة وجودية، هناك، اكتشفت أن الروتين مصنع الذكريات الجميلة، خَبِرتُ السلطة على البشر عندما كنت ضمن اللجنة الانتقائية للمنظمة، لولا هناك لكنت صديقا لعم محمود، ولما عرفت أن أصلنا دجاجات وغربان، أو أن كل إنسان يمارس صمته وسكونه حسب خصوصياته، لولاه لكنتُ من العشاق التائهين في السطحيات والسذاجة الرومانسية والغرامات الهرموناتية، هناك عرفت أنه لا شيء اسمه طفل بداخلنا، استطعت استكشاف المعاني المغلوطة عن السعادة، هناك قدرت أن أتصالح مع نفسي ومع الأرق، عرفت أن الثقة والإرادة والأمل سلعة ردئية، مجرد محاولة فاشلة للضعفاء حتى يقدروا على الاستمرار في عالم يعاديهم، لولا هناك، لما اطمأننت أنني في يوم من الأيام عندما يشيخ هذا البدن ويتجعد هذا الوجه الوسيم أني لن أخاف الموت، تعلمت أن الحياة لا تمنح خيارات أبدا، وإن منحت فسوف يكون الوضع أسوأ، نعيش حياتنا كلها كما يحصل لذلك الذي يحاول أن يفكك قنبلة ويتعرض لخدعة الخيط الأحمر والخيط الأزرق، بالعادة يكون الخيط الأحمر دليل خطر على عكس الأزرق لكنه لا يعلم أي خيط يسبب الإنفجار لأن صانع القنبلة ماكر، هي الحياة بطبيعتها ماكرة مثل صاحبنا لا تمنحنا ترف الخيارات، وإن فعلت فإنها تُربكنا، كل

خيار يكون نصف عقلاني ونصف مجنون، وربما كان كل من الخيطين يسبب الإنفجار.لولا هناك لما كنت هنا، لهذا أنا ممتن لبلدي في هذه، كما أفترض أنكم ممتنون لمصادفتكم لي هذه الأيام القليلة، قد أستمر في سرد قصتي ذات يوم وقد لا تسمعون لي خبرا بعد هذه الصفحة أبدا، لكنكم تعلمتم مني ربما القدرة على الاستغناء عن الحب، ومن ثم، طريقة التصالح مع الحرب.